

معارك الإسلام الكبرى

محمد فتحي بكوش



سلسلة دورية غير منتظمة

حسني يوسف المويشي

معارك الإسلام الكبرى

الطبعة الأولى
جمادي الآخرة 1394
من وفاة الرسول
مارس 1985 م

منشورات



ص.ب: 2682 ـ برقيًا: الإسلامية ـ مبرق: 20407
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية

محسن يوسف اللموتي

معارك الإسلام الكبرى

حسن أيوب الكويتي

لا إكراه في الدين

ظل النبيُّ ﷺ طَوَالَ سنواتِ النبوَّة يدعو إلى اللّهِ على بصيرة ، ويهدي الناسَ إلى الحقِّ في تؤدةٍ ومهل ، ويفكُّ أغلالَ القرون الأولى بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة ، ليعيدَ إلى البشريةِ فطرَتَها ، ويردَّ عليها كرامتَها ، تلك التي داسها المترَفون من ملوكٍ ورؤساء وأحبارٍ ورهبان .

وهل بدَّل الدِّينَ إلا الملوكُ
وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها ؟

وقد جاء النبيُّ بدعوةِ الحق ، التي أودع اللّه فيها عناصرَ الديانات السابقة ، كما أودع فيها حاجاتِ العصورِ المتلاحقة ، فحملها بقوة ، ولم يتكلَّف في تأليف الأنصارِ أوردِّ الخصوم وسائلَ الإغراءِ أو الإرهاب ، لأن دعوةَ الحقِّ أجلُّ من أن تقوم إلا على الحقِّ وحدَه ، ولا يستطيع الناسُ أن يميِّزوا بين الحقِّ والضلال ، إلا في جوِّ الحريةِ وحدَه ، ففي هذا الجوِّ تتنازع المبادىء ، وتتصارع

العقول ، ولكن النتيجةَ المحتومةَ هي بقاءُ الأصلح طبقًا لقول اللّه تعالت كلماته : (... **فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ** ...) .

والأغبياءُ والطغاةُ يكرهون دائمًا حريةَ التفكير والرأي والتحليل ، لأنها تزلزل فكرَهم الآسن ، ورأيَهم المأفون ، وتعليلَهم الفاسد ، وتفضح حياتَهم التي حبسوها بين جدرانِ التقاليدِ العمياء ، ومن ثم سلَّطوا القوةَ الجائحة لإسكات الألسنةِ التي تجهر بالقرآن ، والقرآنُ يومذاك لسانُ المسلمين الناطقُ باسمهم ، والمكافحُ عنهم . كذلك سلَّطوا الفتنةَ الهوجاءَ على المستضعفين من المؤمنين ، فقتلوا من قتلوا ، وعذبوا من عذبوا ، وشرَّدوا من شرَّدوا ، وشعر المؤمنون بالخوفِ على عقيدتِهم ، فهاجروا إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، ولكن الاضطهادَ ظلَّ يلاحقهم ، ليعيدَهم إلى الكفرِ والضلال ، فالمسلمون هم الذين تعرَّضوا للإكراهِ والضغطِ وقسوةِ الطغاة ، وهم الذين ضربوا المثلَ الأعلى في الثباتِ على العقيدة ، وقد علمتهم المحنُ أن القهرَ لا ينال من صاحب العقيدةِ غيرَ لحمه وعظمه ، أما العقيدةُ ذاتُها فإنها تستعلي على الطغيان ، وليس لمخلوقٍ عليها سلطان ..

كما أدركوا مما علَّمهُم القرآنُ الكريم ، أنهم ليسوا مسؤولين عن ضلال الضالين ، فقد استبان الحقُّ ووضح الطريق ، وأن العقيدةَ

التي يُكرَه الإنسانُ على قَبولها يكون أشدَّ الناس عداءً لها ، وأكثرَهم حرصًا على هدمها والتخلص منها ، وأنه إذا كانت عقودُ المكرَهِ باطلةً فكيف يجوز إكراهُه على عقيدةٍ بعينِها ، وهٰذا كتابُ اللّٰهِ يجلجل بحريةِ المعتقدات ، وينفِّر من الإكراه بمثل قوله :

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *) « سورة الكافرون » .

ومثل قوله :

(لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *) « سورة البقرة ـ 256 » . وغنيٌّ عن البيانِ أن مَهَمَّةَ النبيِّ منحصرةٌ في الإنذارِ والتبشير ، وليس عليه بعد ذٰلك إن تبعه قومٌ أو انصرف عنه آخرون ، فكلٌّ حسابُه عندَ ربِّه ، والقرآنُ الكريمُ كثيرًا ما يحثُّ الرسولَ على أن يرفقَ بنفسِهِ ، فلا يقتلها بالأسىٰ على مَنْ أغلق قلبَه في وجْهِ الإيمان ، وفي ذٰلك يقول القرآنُ الكريم :

(إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ *) (سورة البقرة ـ 119) **(فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا *)** « سورة

الكهف ـ 6 » . ولو أن النبيَّ لجأ إلى الإكراه على الإسلام ، لكان متجاوزًا لحدود وظيفته ، ولا يذكر التاريخُ حادثًا واحدًا أرغم فيه النبيُّ فردًا واحدًا على الدخول في دين اللّه ، بل كان يقبل من الناس ظواهرَهم ، ويَكِلُ ما تخفيه الصدورُ إلى اللّه سبحانه وتعالى .

ولقد كان كثيرٌ من أعلامِ الإسلام أشدَّ الناسِ ضراوةً في مقاومةِ الدعوة ، ثم دخلوا الإسلامَ بمحضِ اختيارِهم ، ومنهم على سبيل المثال : عمرُ بنُ الخطاب وخالدُ بنُ الوليد ، ولا يستطيع متحذلق أن يدَّعيَ أنهما أُرغما على الإسلام ، فالعقائدُ لا تستقرُّ بالإكراه ، ولو كان كذلك لرجع عن الإسلام أمثالُ : بلال وعمار ، ولما مات تحت العذاب أمثال : ياسر وسمية ..

ولا يجترىء مكابرٌ على الدعوى بأن الشعوبَ التي دخلت الإسلامَ كانت واقعةً تحت سلطانِ القهر ، فالتاريخُ يشهد أن الشعبَ الفارسيَّ مثلاً حين اعتنق الإسلامَ تحوَّل إلى ركيزةٍ من ركائزِ الحضارةِ الإسلامية ، كما يسجل التاريخُ أن الدعوةَ الإسلاميةَ كانت تشقُّ طريقَها بقوَّتها الذاتية حتى بعد أن فقد العربُ كلَّ قوةٍ وسلطان ، فالأتراكُ كانوا أعدى أعداءِ العرب ، ولكنهم تحوَّلوا إلى مسلمين من تلقاءِ أنفسِهم ، والتتار الذين أسقطوا السيادةَ الإسلاميةَ بالمشرق ، لم يلبثوا ان اعتنقوا الإسلام ، وتحولت

عاصمةُ بلادِهم « سمرقند » إلى مركز من أعظمِ مراكزِ الحضارةِ الإسلامية ، ولا يزال الإسلامُ يغزو كلَّ يوم قلوبًا جديدة ، وينفُذُ إلى بيئاتٍ جديدة ، بالرغم من الصورةِ المشوَّهة التي تُقدِّمها عنه هٰذه القِلَّةُ المارقةُ من الملوكِ والأمراءِ والمترَفين والمتَّجرين بأوامرِه ونواهيه ، وحسبنا أن نطالعَ تقاريرَ المبشرين الصليبيين ، وهي تقطر صديدَ الأحقاد من انتشارِ الإسلامِ في قاراتِ الدنيا ، وذهابِ جهودهم وأموالِهم أدراجَ الرياح ..

ولستَ تجد مسلمًا صادقَ الإسلام ينسلخ عن دينه ، ليعتنق دينًا آخر ، فيما تجد علماءَ أفذاذًا ومفكرين وقادةً للشعوب يدخلون الإسلامَ عن رضًا واقتناع ، وفي أعمال الدولِ الصليبيةِ الحاقدة ، يزحف الإسلامُ كعمود من نور ، يشق جوفَ الظلام ، وليس وراءَ ذٰلك دليلٌ على حيويةِ الإسلامِ الذاتية ، وتفوُّقِهِ على سائرِ الأديانِ المعاصرةِ التي باتت تنحسر وتنحسر بفعل التناقضاتِ الكامنةِ في طبيعتها ، والتي جعلتها عاجزةً تمامًا عن مواجهةِ الحياة المتطورة .

وهنا يصح التعرُّضُ لشبهةٍ من شبهات المستشرقين ، وهي دعواهم أن أبا بكر أكره المرتدِّين على الرجوعِ إلى حظيرةِ الإسلامِ عقيبَ وفاةِ الرسول ، وهي دعوى متهافتة ، لا تقوى على الصمودِ في وجهِ حقائقِ التاريخ ، ذلك أن معظمَ العربِ لم يرتدوا عن

الإسلام ، وإنما كانت حركةُ الرِّدَّةِ تمرُّدًا على دفعِ الزكاة لخليفةِ رسولِ اللّه ، بادعاء أنها كانت حقًّا لصاحب الدعوةِ في حياته ، ولذٰلك بعث المتمرِّدون وفدًا إلى أبي بكر يفاوضه في قَبُولِ الصلاةِ وإعفائهم من الزكاة ، لأن العرب « لا تقرُّ بدفع الجزية » ولكن أبا بكر رفض هٰذه المساومة ، وعزم على قتالِ من فَرَّقَ بين الصلاةِ والزكاة ..

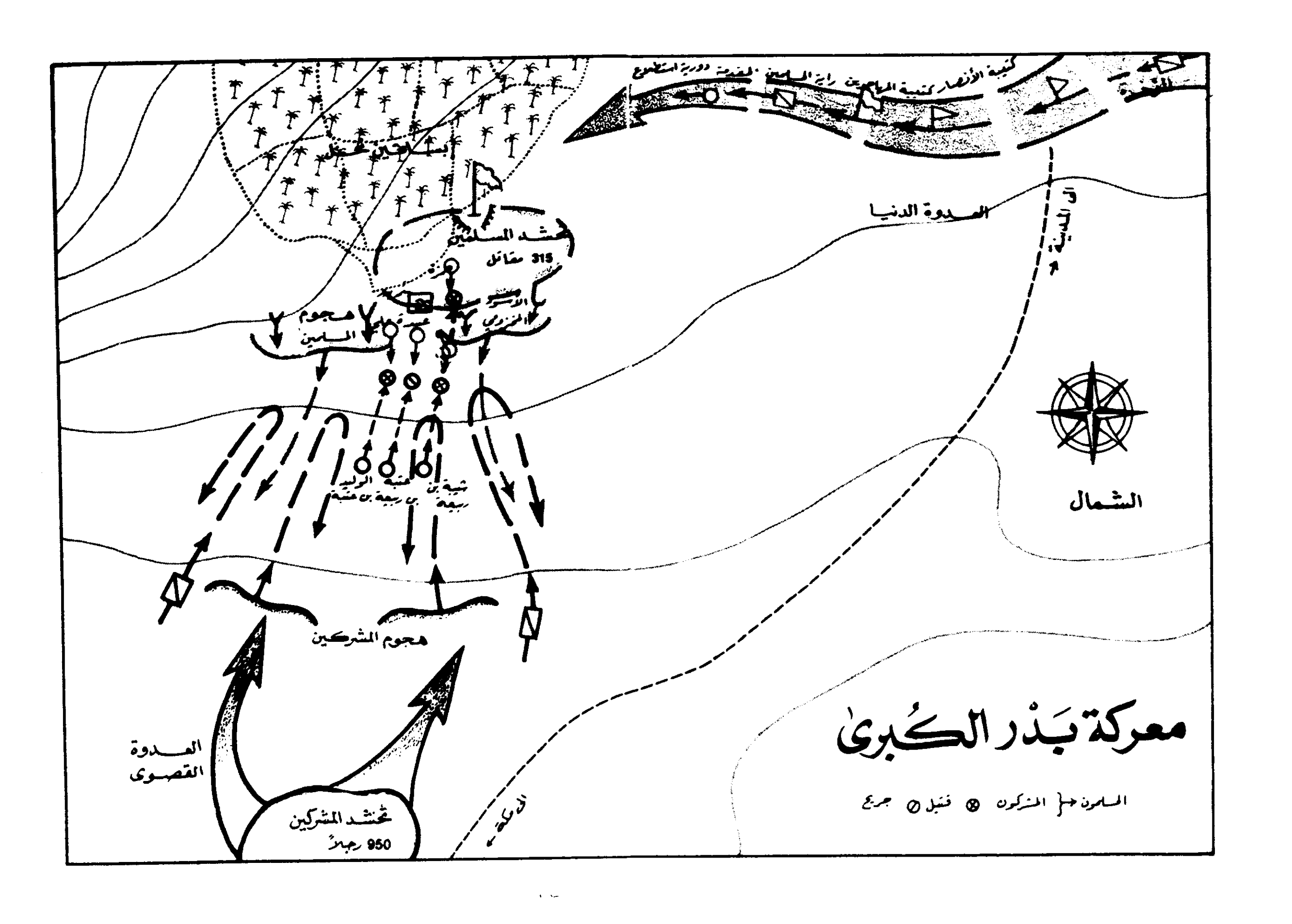
وما كان أبو بكر يُرغِمُ ناسًا على الدخولِ في الإسلام ، بل كان يلوي عنقَ المتمرِّدين على الرجوع إلى حظيرةِ الدين ، والوفاءِ بتكاليفه ، وعدمِ التفرقةِ بين أركانه ، فالإسلام كلٌّ لا يتجزأ ، والصلاةُ حقٌّ البدنِ والزكاةُ حقٌّ المال ..

وقصارى القول : إن الإسلامَ لا يعرف الإكراه ، ولا يعترف به ، وتاريخُهُ شاهدٌ على أن أتباعَه هم الذين تعرَّضوا للاضطهاد ، وما زالوا يتعرَّضون له في الوقت الحاضر ، من جانب الصليبيةِ الدولية ، والصِّهيونيةِ العنصرية ، والبوذيةِ الوثنية ..

(يُرِيدُونَ اَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اَللّٰهِ بِاَفْوٰهِهِمْ وَيَاْبَى اَللّٰهُ اِلاَّ اَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ اَلْكٰفِرُونَ * هُوَ اَلَّذِي اَرْسَلَ رَسُولَهُ بِاَلْهُدٰى وَدِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ *) « سورة التوبة ـ 32 ـ 33 » .

1

الصدام الأول بين الثورة الإسلامية والوثنية الأرستقراطية



معركة بدر الكبرى
المسلمون المشركون قتيل جريح
الشمال
العدوة الدنيا
العدوة القصوى
حشد المسلمين
315 مقاتل
هجوم المسلمين
هجوم المشركين
حشد المشركين
950 رجلاً
شيبة بن ربيعة
عتبة بن ربيعة
الوليد بن عتبة
كتيبة الأنصار
كتيبة المهاجرين
راية المسلمين
دورية استطلاع

الصدام الأول بين
الثورة الإسلامية
والوثنية الأرستقراطية

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *) صدق اللّه العظيم .

ظلت قريشٌ تدفع بالأحداثِ بينها وبين المسلمين ، لتصلَ في ذروتها إلى الصدامِ المسلحِ معهم .. وعبثًا حاول المسلمون أن يحاسنوا الطغاة ، ويجادلوهم بالحسنى ، ليتركوهم وشأنهم ، فقد كان خوفُ الطغاةِ على أوضاعِهِم الطبقية ، ومراكزِهم الاجتماعية ، يعمى أبصارَهم ويُصِمُّ آذانَهم ويغلق قلوبَهم بأغشيةِ العنادِ والغرور ..

فلم يبق للمسلمين بدٌّ من أن يحاولوا أعداءهم بالسيف ، وأن يتأهبوا لمصارعتهم في ميادينِ القتال ، وإلا حقَّتْ عليهم كلمةُ الفناء وانطفأ مصباحُ الثورةِ تلك التي خالطت فيهم عصبَهم ودمَهم وكلَّ خفقَةٍ في قلوبهم .

وفي سياقِ مقارعةِ العدوان ، فإن من حقِّ المعتدَي عليه أن يسبقَ المعتدي إلى المواقفِ التعرضية ، وأن يفاجئه بضروبِ المفاجأةِ ، وأن يهاجمَه في مصادرِ ثروتِه ، وأن ينكِّلَ به شرَّ تنكيل .. والقرآنُ الكريمُ يعلِّمنا أن نقابلَ العدوانَ بالعدوان ، ويحثُّنا على مواجهةِ الظالمين في كلِّ ميدان ، وأن نُغلظَ عليهم في القتال ، فنقطعَ أعناقَهم وأطرافَ أصابعهم ، ونعدَّ لهم من أنواعِ القوةِ ما يخلع قلوبَهم ، حتى يرعوُوا عن غيِّهم ، ولا تحدِّثهم نفوسُهم بأن يروِّعوا الآمنين ، أو يكدّروا صفوَ السلام .. وفي ذلك جاء قولُه :

(**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** *) « الحج : 39 » .

(**وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ** *) « الشورى : 41 » .

(**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** *) « التوبة : 73 » .

(**إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** *) « الأنفال : 12 » .

وكانت قريشٌ تمرُّ بتجارتها إلى الشامِ عبرَ المدينة ، رائحةً

وغادية ، حاملةً الميرةَ والثروةَ الوفيرة ، يصحبها حراسٌ أقوياء ، وخبراءُ في البيعِ والشراء ، وأدلاَّءُ يعرفون مسالك الطرق ، وزيَّن لها غرورُها أن المسلمين لن يدورَ بخَلَدِهم أن يهاجموا تجارتَها ، فهم أضعفُ من أن يناصبوها العداء ، وأن يواجهوا التحدِّي بالتحدِّي ، ولكن المسلمين اندفعوا بقوةِ إيمانِهم يجابهون الجبروتَ الوثني ، لا يبالون أن يقعوا على الموتِ أو يقعَ عليهم الموت ، فالنفسُ المؤمنةُ بحقِّ اللّهِ وحقِّ الحياةِ آمنةٌ غايةَ الأمن ، حتى لو طُبِخَتْ بالنار .. حتى لو زُلزِلَتْ من تحتِها الأرض .. حتى لو سقط عليها سقفُ الدنيا ..

بدأت سرايا رسولِ الله ﷺ تهاجم قوافلَ قريش .. فكانت أولُ سريةٍ تعترض قوافلَ قريش هي سريةَ « حمزةَ بنِ عبدِ المطلب » ثم أعقبتها سريةُ « عبيدةَ بنِ الحارث » فسريةُ « سعدِ بنِ أبي وقاص » ثم خرج النبيُّ بنفسِه في غزوةِ « ودَّان » وهي أولُ غزواتِه المباركة ، لردعِ المعتدين و إقرارِ السلام ، و إعلاءِ رايةِ الدعوةِ الخالدة ..

ثم خرج في غزوة « بواط » حين بلغه أن قافلةً لقريشٍ راجعةٌ من الشام ، ولكن القافلةَ فاتَتْه ، كما فاتَتْه في الغزوةِ السابقة ، لأن المشركين بدؤوا يأخذون الحذرَ على تجارتِهم .. وأعقب رجوعَه ﷺ ، خروجُ قريشٍ إلى الشامِ بأعظمِ تجارةٍ لها .. حتى

قيل إنه لم يبق في مكةَ قرشيٌّ ولا قرشيةٌ لها مثقالٌ فصاعدًا إلا بعثت به في تلك التجارة .. وكان يقود القافلةَ « أبو سفيانَ بنُ حربٍ » أحدُ طغاةِ مكةَ المترَفين ، وأعدى أعداءِ الدعوةِ في ذلك الحين ..

وخفَّ النبيُّ إلى مهاجمةِ القافلة ، في مئة وخمسين من المهاجرين ، وسار حتى بلغ « العشيرة » بالقرب من « ينبع » ولأمر أراده اللّهُ كانت القافلةُ قد مضت ، فلم يدركها النبيُّ ﷺ فرجع إلى المدينةِ يترقب عودتَها ... ولم يطل بها العهدُ ، وما أن سمعَ النبيُّ بعودتها حتى ندب إليها أصحابَه قائلاً : هذه عيرٌ لقريش .. فاخرجوا إليها .. لعلَّ اللّهَ يجعلها لكم غنيمة ..

فخرج معه ثلاثمئة وسبعةَ عشرَ رجلاً ، ليس معهم سوى فرسين وسبعين بعيرًا ، يتعاقبون عليها ..

وعلم أبو سفيانَ بخروجِ الرسولِ للتعرُّض لقافلته ، فاستأجر رجلاً ليخبر قريشًا بالأمر .. فهمَّت قريشٌ على كلِّ صعبٍ وذلول ، للدفاع عن تجارتها ... وكان عددُ مَنْ خرج منها تسعَمئةٍ وخمسين رجلاً ، معهم مئةُ فرس ، عليها مئةُ درع ، سوى دروعِ المشاة ، ومعهم كذلك سبعمئة بعير .. وساروا وبين أيديهم القيانُ « المغنيات » يضربن بالدفوفِ ويغنين بهجاء المسلمين .

تقديرُ الموقف

لم يعرف النبيُّ شيئًا مما فعله المشركون .. فقد كان في نيَّتِهِ أن يستوليَ على القافلة ، فعسكر ببيوت السقيا خارجَ المدينة ، ولبس درعه « ذات الفضول » ، وتقلَّد سيفَه « العضب » واستعرض أصحابَهَ ، فردَّ من استصغره ، ودفع اللِّواءَ إلى « مصعبِ بن عُمير » وتشير بعضُ الرواياتِ إلى أنه خرج مع المسلمين رجلٌ مشركٌ، وكان ذا بأسٍ ونجدة ، ولكنَّ الرسولَ ردَّه ، ولم تلبث الأخبارُ أن جاءت المسلمين بأن القافلةَ ستصل إلى « بدرٍ » غدًا أو بعدَ غد ـ « بدرٌ هو مكان به آبارٌ بين مكةَ والمدينة ، وهو إلى المدينةِ أقربُ ، وكانت تنزل عنده القوافلُ التي تتردَّد بين مكةَ والشام ، وكان كذلك سوقًا من أسواق العرب » ثم وردت الأخبارُ كذلك بمسيرِ قريشٍ لحمايةِ تجارتها .. فبادر النبيُّ يستشير أصحابَه في الموقف وقال لهم :

« إن القومَ خرجوا من مكةَ على كلِّ صعبٍ وذلول .. فالعيرُ « القافلة » أحبُّ إليكم أم النفير » ؟ .

فقال بعضهم . بل العيرُ أحبُّ إلينا .. لأننا لم نخرج إلاّ لها .. ولم تذكر لنا القتالَ قبلَ خروجنا حتى نستعدَّ له ..

وهنا قام من المهاجرين أبو بكر وعمر ، فقالا رأيهما في الموقفِ وأحسنا القول ، وكان مما قاله عمرُ :

يا رسولَ الله .. إنها قريشٌ وعزُّها .. والله ما ذَلّت منذ عَزَّت .. ولا آمنتْ منذ كفرت .. والله لتقاتلنَّك .. فتأهَّبْ لذلك أهبتَه ، وأعِدَّ لذلك عُدَّتَه ..

وتكلم المقدادُ بنُ الأسود فقال :

يا رسولَ الله .. امضِ لما أمرك اللهُ .. فإنَّا معك .. لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : (... **فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ** *) و إنما نقول لك : اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عينٌ تطرف ..

فتبسم رسولُ اللّهِ ثم قال : **أشيروا عليَّ أيُّها الناس..** « يريد الأنصارَ لأنهم قالوا له يومَ العقبة : إنا برآءُ من ذمامِك ، حتى تصلَ إلى ديارنا .. فإذا وصلَت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه نساءنا وأبناءنا .. وخشيَ أن يكونَ الأنصارُ لا يرون الدفاعَ عنه إلا إذا دهمه عدوٌّ بالمدينة) .

فقام سعدُ بنُ عبادةَ فقال : يا رسولَ الله .. انظر أمرَك .. فامض .. فواللهِ لو سرت بنا إلى برِكِ الغماد (الحبشة) ما تخلَّف عنك رجل من الأنصار .

ثم استوحى سعدُ بن معاذ هواتفَ إيمانه فقال :

يا رسولَ الله .. قد آمنَّا بك وصدقناك وشَهِدْنا أنَّ ما جئتَ به الحق .. فوالذي بعثك بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضتَهُ لخضناه معك ، ما تخلَّف منا رجلٌ واحد .. وما نكره أن تلقي بنا عدوَّنا غدًا .. إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عندَ اللقاءِ ولعلَّ اللهَ يريك منَّا ما تقرُّ به عينُك ، فسِرْ على بركةِ الله ..

رجحت إذًا كفَّةُ «النَّفير» على كفَّةِ « العير » وأجمع المؤمنون أمرَهم على مناجزةِ المعتدين ، فقال لهم القائد ﷺ :

سيروا على بركةِ اللهِ وأبشروا .. فإن اللهَ وعدني إحدى الطائفتين .. واللهِ لكأنِّي الآن أنظرُ إلى مصارعِ القوم .. و إلى هذا الموقف يشير القرآنُ الكريمُ في قوله : (**وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ***) « الأنفال : 7 ـ 8 » .

العناد الأجوف

وكان أبو سفيانَ قد ترك بقافلته الطريقَ المألوفة ، وسار بها متَّبعًا ساحلَ البحر ، فنجا من قبضةِ المسلمين ، وأرسلَ إلى قادةِ قريش ، يطلب إليهم الرجوعَ إلى مكة ، ولكنهم ركبوا رؤوسَهم .

وجاء الأخنسُ بن شريق ، وكان مقدَّمًا في بني زهرة ، فخلا بأبي جهل (أبو الحكم عمرو بن هشام) فقال له : يا أبا الحكم : ـ أترى محمدا يكذب؟ قال : ما كذب قط .. كنا نسمِّيه : الأمين ... لكن إذا كانت في بني عبد المطلب : السقايةُ .. والرفادةُ .. والمشورةُ .. ثم تكون فيهم النبوّةُ .. فأيُّ شيء يكون لنا؟ وغلبت عليه شِقْوتُه فأبى أن يرجع .. ولما قيل له : إن العير قد أخذت طريقَ الساحلِ ونجت ، فارجع بالناس : أجاب في غطرسةِ المترَفين : لا .. حتى ننحرَ الجزور .. ونشربَ الخمور .. ونقيم القيانَ والمعازف « ببدر » فيتسامع العربُ بمخرجنا ، وأن محمدًا لم يصب العير .. وأنا قد أعضضنا » ...

وسار جيشُ الوثنية .. حتى بلغ وادي « بدر » فنزل عدوتَه « شاطئه » القصوى عن المدينة ، في أرض سهلةٍ لينة .. أما جيشُ المسلمين ، فإنه نزل بعدوةِ الوادي الدنيا من المدينةِ في أرضٍ تسوخ فيها الأقدامُ ويثور الغبار ..

استـطـلاعُ الأخـبـار

وكان القائدُ قبل أن يصلَ إلى بدرٍ ، أمر أصحابَه أن يقطعوا الأجراسَ من آذانِ الإبل ، حتى لا يعلمَ بهم أحدٌ .. ثم خرج مع

أبي بكر متنكِّرَيْن ، فلما أمسى بعث عليًّا والزبيرَ للغايةِ نفسِها ، فصادفا سقاةً لقريش ، فيهم غلامٌ لبني جمح ، وغلام لبني العاص السهميين ، فأتيا بهما النبيَّ ﷺ ، فقال لهما : أخبراني عن قريش .. قالا : هم وراء هذا الكثيب .. ثم سألهما عن عددهم .. فقالا : لا ندري .. فقال لهما : كم ينحرون كلَّ يوم؟ فأجابا : يوما تسعًا ويومًا عشرًا .. فاستنبط القائد أن القوم ما بين التسعمئة والألف ..

ثم سألهما عَمَّن في النفير من أشرافِ قريش ، فذكرا له عددًا كثيرًا .. فالتفت النبيُّ إلى أصحابِهِ قائلاً : هذه مكةُ قد ألقت إليكم أفلاذ كبدِها ..

أرسل اللّهُ الغيث على المسلمين ، فسال به الوادي ، فاغتسلوا وتوضؤوا ومَلؤوا الأسقيةَ ولبدَتِ الأرضُ حتى ثبتت عليها الأقدامُ .. فيما كان هذا الغيثُ نقمةً على المشركين ، حيث منعهم من الوصول إلى الماء ، والتنقل من مكان إلى مكان ..

وسار المسلمون بقيادة نبيِّهم ، فنزل بهم أدنى ماءٍ من « بدر » .فقال له الحُبَاب بنُ المنذر : يا رسولَ الله .. أهذا منزلٌ أنزلكَهُ اللّه ، ليس لنا أن نتقدمَه ولا أن نتأخرَ عنه .. أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدة .. ؟ قال : بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدة .. قال الحباب : يا رسولَ الله .. فإن هذا ليس بمنزل .. انهض بالناس

حتى تأتيَ أدنى ماءٍ من القوم .. فإني أعرف غزارة مائه .. ثم نغوِّرُ ما عداه من القُلُب (الآبار غير المبنية) ثم نبني عليه حوضًا ، فنملؤه ماءً ، فنشرب ولا يشربون (لأن القُلُبَ كلُّها حينئذ تصير خلف ذلك القليب) فأنفذ الرسولُ هذا الرأي ..

وقال سعدُ بن معاذ : يا نبيَّ اللّه .. ألا نبني لك عريشًا (خيمة من جريد يستظل بها) تكون فيه ، ونعدُّ عندك ركائبَك؟ فان أعزَّنا الله وأظهرنا على عدوِّنا ، كان ذٰلك ما أحببنا .. و إن كانت الأخرى ،لحقتَ بمن وراءنا .. فقد تخلَّت عنك أقوامٌ ما نحن بأشدَّ حبًّا لك منهم ، ولا أطوعَ لك منهم .. ولهم رغبةٌ في الجهاد ونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تَخَلَّفوا عنك .. إنما ظنوا أنها العير .. يمنعك اللّه بهم ، ويناصحونك ويجاهدون معك ..

فرضي الرسولُ وقال : أو يقضي الله خيرًا من ذلك يا سعد ..

ثم بُني العريش فوق تلٍّ مشرفٍ على المعركة ، فكان بمثابةِ « غرفة العمليات » ووقف أبو بكر على بابه حارسًا مشهرًا سيفه ..

وأقبلت قريشٌ صبيحةَ يوم الثلاثاء ، السابعَ عشرَ من رمضان ، من السنة الخامسةَ عشرةَ للبعثةِ النبويةِ (الثانية من الهجرة) وهي تختال في جموعِها الوافرة ، ودروعِها السابغة ، وأسلحتِها الشاكَّة ، ورؤوسِها المخمورة بالعُجْب والغرور ..

وما أَن رآها النبيُّ حتى رفع يديهِ الى السماء ، مستغيثًا بربِّه ،

وكان مما قال : اللّهمَّ هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها ، تجادلك وتكذِّب نبيَّك .. اللّهمَّ فنصرَك الذي وعدتني .. اللّهُمَّ إن تهلك هذه العصابةُ اليومَ لا تعبد في الأرض.

المجاهدون بلسان عدوهم

وقُبَيلَ نشوب القتال ، أرسلت قريشٌ « عميرَ بنَ وهبٍ الجمحيَّ » طليعةً لها ، فاستجال بفرسه حول عسكرهم ، ثم رجع إلى قريشٍ فقال : ثلثمئة رجل .. يزيدون قليلاً ، أو ينقصون قليلا .. ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمينا أو مددًا ..

فذهب في الوادي حتى أبْعَدَ ، فلم يرَ شيئًا .. ثم رجع إليهم وقال :

ما رأيتُ شيئًا ، ولكن رأيتُ البلايا تحمل المنايا .. رأيتُ قومًا لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم .. واللّه ما أرى أن نقتلَ منهم رجلاً حتى يُقتَلَ رَجلٌ منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادَهم فما خيرُ العيشِ بعدَ ذٰلك ؟ .

فلما سمعت قريشٌ ذٰلك ، رأى بعضُ كبرائها أن يرجعوا بلا حرب .. ولكنَّ أبا جهل أبى إلا الحرب .. ورأى المشركون قلةَ المسلمين فطمعوا فيهم ، وقلَّلَ اللّهُ العددَ في عين المسلمين فطمعوا

فيهم ، ورغب الفريقان في القتال ، وفي ذٰلك يقول القرآنُ الكريم :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * ﴾

« الأنفال : 44 » .

الـواقـعـة الـفـاصـلـة

وتراءى الجمعان .. وخرج من صفوف الوثنيين : الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ المخزومي ، وقال : أعاهد اللّهَ لأشربنَّ من حوضِهم أو لأهدمنَّه ، أو لأموتَنَّ دونه .. فخرج إليه حمزةُ بنُ عبدِ المطلب ، وضربه ضربةً قطع بها قدمَه بنصف ساقه ، فوقع على ظهرِه ، فزحف كدودةِ الأرضِ على الحوض ، حتى اقتحم فيه ليبرَّ قسمَه ، فأتبعه حمزة فقتله ..

ثم وقف القائدُ يحرِّض على الثبات ، وكان فيما قال :

إن الصبرَ في مواطنِ البأسِ مما يفرِّج اللّهُ به الهم ، وينجي من الغم ..

وابتدأ القتالُ بالمبارزة .. فخرج من المشركين ثلاثةُ نفرٍ : عتبةُ ابنُ ربيعةَ بين أخيه شيبةَ ، وابنهِ الوليد .. فطالبوا أكفاءهم .. فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار .. فقالوا : لا حاجةَ لنا بكم .. إنما

نريد أكفاءنا من بني عمنا .. فرفع القائدُ صوته قائلاً : قوموا يا بني هاشم .. فقاتِلوا بحقِّكم الذي بُعِثَ به نبيُّكم .. إذ جاؤوا بباطلهم ليطفؤوا نورَ اللّه .. قم يا عبيدةَ بنَ الحارث .. قم يا حمزةُ .. قم يا عليّ ..

فقام الأبطالُ إلى أعدائهم ، فقتل حمزةُ شيبةَ ، وقتل عليٌّ الوليد ، واختلف عبيدةُ وعتبةُ ضربتين كلاهما أثبت صاحبه . فكرَّ عليٌّ وحمزةُ على عتبةَ فقتلاه ، واحتملا عبيدةَ إلى النبي ، فأفرشه قدمَه ، فوضع عليها خدَّه .. فقال عبيدةُ للرسول : ألستُ شهيدًا يا رسولَ اللّه ؟ قال : بلى .. أشهد أنك شهيد ..

ووقف النبيُّ بين الصفوف يعدلها ، وأوصى المجاهدين قائلاً :

لا تحملوا حتى آمرَكم ، وإن اكتنفكم القومُ فانضحوهم بالنبال .. ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشوكم ..

وحرَّضهم على الصبرِ والاستبسالِ في هٰذه الوقعةِ الحاسمة ، فكان فيما قال :

والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتل صابرًا محتسبًا مُقبلاً غيرَ مدبر الا أدخله اللّهُ الجنة ..

وتلاحم الجيشان .. وحدثت المفاجأةُ التي لم تخطر للمعتدين على بال .. فإن الرسولَ اتَّبع أسلوبَ القتالِ بالصفوفِ ، ولم يكن هٰذا الأسلوبُ معروفًا عند العرب من قبلُ ، فقد كانوا يتبعون

طريقةَ الكرِّ والفرِّ .. وكان لثبات صفوفِ المسلمين ، ورشقها الخيلَ بالسهام ، واقتناصِها لرؤوسِ قريشٍ من أماكنها أثرٌ كبيرٌ في قلْبِ ميزانِ المعركةِ وترجيحِه لمصلحةِ المسلمين .. فلم يمض نصفُ النهارِ حتى قُتِل من المشركين سبعون ، وأُسِرَ منهم سبعون ، وشهدت بطحاءُ بدرٍ مصرعَ الطغاةِ الوثنيين بسيوف الفقراءِ الموحِّدين ، في أولِ صدامٍ مسلحٍ بين الفريقين ..

وأمر الرسولُ بجثث القتلى ، فنُقلت من مصارعها إلى « قليبِ بدرٍ » ثم وقف على شفا القليب ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماءِ آبائهم قائلاً :

أيسرُّكم أنكم كنتم أطعتم اللّهَ ورسوله .. فإنَّا وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدَ ربُّكم حقًّا؟.

وأرسل زيدَ بنَ حارثةَ وعبدَ اللّهِ بنَ رواحةَ بشيرين إلى المدينة ليزفَّا إليها النبأَ العظيم ، ففرحت قلوبُ المؤمنين بنصرِ اللّه ، وابتأست قلوبُ المنافقين واليهود ، وكأن بشرى البشيرين كانت تنعي إليهم وجودَهم المعربدَ في المدينة .. ثم قسم الغنائمَ على المجاهدين الذين اغتُصِبَتْ أموالُهم وديارُهم في مكة ، وأُخرجوا منها بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا اللّه .. واستشار المؤمنين في أمرِ الأسرى ، فكان رأيُ عمرَ ومن معه أن تُضرَبَ أعناقُهم ، وكان

من رأيُ أبي بكرٍ ومن معه أن يؤخَذَ منهم الفِداء ، وقد امتدح الرسولُ كلا الرأيين ، لأن الوُجهةَ واحدةٌ وهي إعزازُ الدِّين و إذلالُ المشركين .. ثم أخذ برأيِ أبي بكرٍ لميل الغالبيةِ إليه ، وقال لأصحابه : أنتم اليوم عالةٌ .. فلا يفلتنَّ أسيرٌ إلا بفديةٍ أو ضربِ عنق .. ومن لم يكن معه فداءٌ ، وهو يحسن القراءةَ والكتابةَ ، أعطاه عشرةً من صبيانِ المسلمين يعلِّمهم .. ولكن القرآنَ الكريمَ نزل يعاتب النبيَّ على قَبُولِ الفداءِ من الأسرى ، قبل أن يثخنَ في قتلِ الطغاةِ الذين صدُّوا عن سبيلِ الحق ، وأشار القرآنُ إلى أنه لولا حكمُ اللّه في ألاَّ يعاقبَ المجتهدين على اجتهادهم ، لأنزل العِقابَ بالنبيِّ والمؤمنين ، ثم أباح القرآنُ للمؤمنين أكلَ الفداء ، نظرًا لأن قَبولَه كان مؤسَّسًا على النظر الصحيح .. وفي ذٰلك يقول : (**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ اَنْ يَكُونَ لَهُ اَسْرٰى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْاَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّٰهُ يُرِيدُ الْاٰخِرَةَ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا اَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ***) « الأنفال : 67 ـ 69 » . وفي عتابِ اللّهِ لنبيِّه ، أبلغُ دليل على صدقِ دعوةِ النبي ، فيما جاء به ، لأنه لو كان ما جاء به من عنده ، ما عاتَب نفسَه هٰذا العتابَ المريرَ على عملٍ قام به بناءً على رأيِ كثيرٍ من الصحابة ..

كلمة عن الإمداد الملائكي

جاء في سورة الأنفالِ في سياقِ الاشارةِ إلى معركةِ « بدر » قولُ اللّهِ تبارك وتعالى : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ « الأنفال : 9 » .

وقد طال كلامُ الباحثين في الإمدادِ الملائكيِّ فبعضُهم يستند إلى ظاهرِ الآياتِ القرآنيةِ فيقول بأن الامدادَ كان حسيًّا في معاركِ الرسولِ وأن الملائكةَ نزلت وباشرت القتالَ فعلاً ، وبعضُهم يرى أن الإمدادَ الملائكيَّ كان لتقويةِ الروح المعنويِّ ، كما قال تعالى بعد الآية السابقة :

﴿ **وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ « الأنفال : 10 » .

فاستجابةُ اللّه دعوةَ الرسولِ بإرسال الملائكة إنما كانت لتبشير المسلمين بالنصر ، و إدخالِ الطمأنينةِ إلى القلوب ، وفي رأينا ان هٰذه الآيةَ تُعَدُّ نصًّا حاسمًا في محلِّ الخلاف ، وتضاف إليها آيةٌ أخرى تحدِّد وظيفةَ الملائكةِ في ميادينِ القتال ، وهي قوله تعالى :

﴿ **إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ** .. ﴾ « الانفال : من الآية 12 » .

والملائكةُ أرواحٌ تستطيع بالإلهام أن تقوِّيَ العزائمَ وتربطَ على

القلوب ، كما توقع الرعبَ في قلوبِ الكفار بنفسِ الإلهام .

دلالات وعـبـر

مما يسترعي النظرَ في معركة « بدر » انتصارُ المسلمين على عدوٍّ يتراوح ما بين التسعمئة والألف .. بينما هم لا يتجاوزون ثُلثَ هٰذا العدد ، وكلا الفريقين عربٌ خُلَّص ، يغار كلٌّ منهم على دينه أن يصاب بمكروه ، وعلى شرفه أن ينتقصه عارٌ من قتل أو فرار .. ومع كلِّ هٰذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم ما يستغرب ، فإن الحربَ لم تستمر أكثر من نصف نهار .. قُتِلَ فيها كثيرٌ من سادةِ المترَفين ، الذين ناصبوا الدعوةَ العداء وصبوا على المؤمنين ضروبَ الأذى ، كأبي جهل وعتبةَ وشيبة ابني ربيعة ، وأبي الحكم بنِ هشام ، ونوفل بنِ خويلد وعقبةَ بنِ أبي معيط ، والنضرِ بنِ الحارث وأميةَ بنِ خلف ، وحنظلةَ بنِ أبي سفيان ..

ولا عجب ، فالمؤمنون كانوا مؤمنين إيمانًا مَلَكَ عليهم نفوسهم ، فقاتلوا بعزيمةٍ أحرَّ من النار وأمتن من الحديد واثقين من نصر الله لأنهم نصروه في مواقفهم كلِّها ..

بدر .. وما أدراك ما بدر ؟ هي الحدُّ الفاصلُ بين الحقِّ والباطل ، وهي المعينُ الذي لا ينضب من الدروسِ الحيةِ

المتجدِّدة ، وستبقى هٰذه الدروسُ نبراساً للمسلمين ، في صراعهم الطويلِ بينَهم وبين عدوِّ ربِّهم وعدوِّهم ..

ومن هٰذه الدروس : أن الاسلامَ سما بأسبابِ الحروبِ ودوافعِها ، ووضع لها أسلوبًا يتميز بحسن الأداءِ والتخطيطِ والإعداد ، وممارسةِ القتالِ على أسسٍ علميةٍ صحيحةٍ .. ومن هٰذه الدروس : أن الحقَّ لا بدَّ من تعزيزه بالقوة ، وأن العنفَ لا يجابَه إلا بالعنف .. وأن الحربَ إذا نشبت فلا بد من خوضِها حتى النصر .. ولا بد من تحقيقِ النصرِ في أسرعِ وقت وبأقل خسارة ، لأن الهزيمة قاسية ، وعواقبَها أشدُّ فتكًا بالمهزومين من الحربِ نفسها ..

ومن دروس الصدام الاول : أن قرارَ المعركة كان ثمرةَ حوارٍ مفتوحٍ بين المسلمين ، مما يؤكد ديمقراطيةَ المجتمعِ الإسلاميِّ ، فقد رأينا القائدَ يستشير جنودَه من المهاجرين والانصار ، فأجمعوا أمرَهم على خوضِ غمراتِ القتال ، ومضوا إليها كتلةً مندمجةً تحطمت عليها رؤوسُ الطغاةِ المترَفين ..

ومن دروس الملحمةِ المجيدة : تلك البسالةُ الخارقةُ التي أبداها المؤمنون ، فقد رُوِيَ أن الزبيرَ بنَ العوام ، لَقِيَ « عبيدةَ بنَ سعيدِ ابن العاص » وهو مدجَّجٌ بالسلاحِ ، لا يُرَى منه إلا الحدق .. فحمل عليه الزبيرُ وطعنه بحربتَهِ فمات .. فوضع الزبيرُ رجله على

رأسِ المشرك ، ثم تمطَّى لينزعَها ، فنزعها بعد جَهْد ..

وضرب « عكرمةُ بنُ أبي جهل » معاذَ بنَ الجموح على عاتقه ، فطُرحت يدُ معاذ رضي اللّه عنه وتعلقت بجلده ، فجعل معاذٌ يقاتل وهي خلفه ، حتى آذته وضايقته .. فتمطَّى حتى طرحها ، وواصل قتالَ المشركين ودمُه ينزف ..

ومن دروس الوقعة المشهودةِ أن يؤمن الجنديُّ بقضيته ، فلا شيءَ أبعثُ على النصر من أن يعرفَ الجنديُّ لماذا يموت ؟ .. ولا بدَّ من أن يرتفع هٰذا الإيمانُ على نوازع القربى ، وأن يجعلَ المجاهدُ شعارَه رضاءَ اللّهِ ونصرةَ دينه ، وقد رأينا في « بدر » كثيرًا من المسلمين يقتلون ذوي قرباهم مؤثرين وشيجةَ العقيدةِ على وشيجةِ النسب ، كمثل أبي عبيدةَ بنِ الجراح الذي قتل أباه ..

وكان الشبانُ يتسابقون إلى الانخراطِ في صفوفِ المقاتلين ، ولكنَّ الرسولَ كان يردُّ من يستصغره منهم فردَّ أسامةَ بنَ زيد ، ورافعَ بنَ خديج ، والبراء بنَ عازب ، وأسيدَ بنَ حضير ، وزيدَ ابنَ أرقم ، وزيدَ بنَ ثابت .. ورد « عميرَ بنَ أبي وقاص » ولٰكنه بكى ، فأجازه النبيُّ واستُشهد رحمه اللّهُ ببدرٍ وعمره ست عشرة سنة .

وقتل شابان من المسلمين رأسَ الكفر أبا جهل وانصرفا إلى الرسول وكلٌّ منهما يقول أنا قتلتُه .. فتبسم الرسولُ وقال لهما : هل

مسحتما سيفيكما ؟ قالا : لا .. فنظر فيهما ثم قال لهما : كلاكما قتله .. هٰذا كان فرعونَ هٰذه الأمة ..

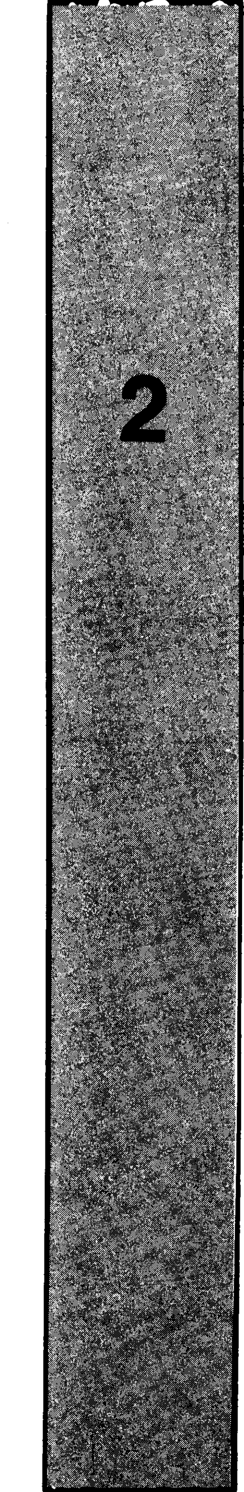
كان من آثار الغزوةِ العظمى : أن المشركين باتوا يحسبون للمسلمين حسابًا جديدًا ، ودخل كثيرٌ من الخلق في دين اللّه ، لما رأوا هزيمةَ الفئةِ الكثيرةِ أمامَ الفئةِ القليلة ، وهم جميعًا من العرب ، وأولئك أقرباءُ هؤلاء ، والسلاحُ في أيدي المشركين أوفرُ منه في أيدي المسلمين فلم يبق من فارق سوى العقيدة التي جاء بها محمدُ بنُ عبدِ اللّه ..

وازداد المؤمنون بنصر اللّه إيمانًا بدينهم ، وتعلُّقًا برسولهم ، وحُبِّبَ إليهم الجهادُ والاستشهادُ ووضعوا أنفسَهم على تمام الأهبةِ للقتال ، وهم يردِّدون قول اللّه ذي الجلال :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ « آل عمران : 123 » .

أُحُد

بين النَّصرِ وَالهزيمة



معركة أحُدْ

جيش المشركين
3000 مقاتل

جبل أحُد

الموقف الاول :
تقدم المسلمين واختيارهم شعب
الجبل أرضاً للمعركة
تقدم المشركين ومواجهتهم المسلمين
ارتداد المشركين على أعقابهم

جبل الرماة
الميسرة (عكرمة)
الميمنة (خالد)
وادي العقيق
خروج المسلمين
700 مقاتل
حرة واقم
الشمال
جبال الحجاز
تحشد المسلمين
في الشيخين
رجوع المنافقين
صخور بركانية
جبل سلع
حرة الوبرة
المدينة
قباء
الى بدر

جبل أحُد
جبل الرماة

الموقف الثاني :
1 - المطاردة واحتلال معسكر المشركين
2 - تخلي الرماة عن اماكنهم بسبب الغنائم
3 - استغلال خالد للموقف ومناورته التاريخية

الشمال
جبل أحُد
جبل الرماة

الموقف الثالث :
1 - يهاجم خالد المسلمين بفرسانه من الخلف
2 - يبدأ المشركون الهجوم ثانية بعد اعادة التجمع
3 - تشتيت قوات المسلمين

جبل أحُد
جبل الرماة

الموقف الرابع :
1 - المطاردة من قبل المشركين
2 - صمود الرسول وصحابته امام هجمات المشركين المتكررة
3 - عودة المشركين الى مكة

أُحُدٌ
بين النصر والهزيمة

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « آل عمران ــ 152 » .

عادت قريشٌ بعد هزيمتِها في « بدر » مثخنةَ الجراح .. موغرةَ الصدر .. منكَّسةَ الأعلام .. وتسامع العربُ بإيقاعِ المسلمين بها فتزعزعتْ هيبتُها .. فيما تجاوبت الأرجاءُ بانتصارِ المسلمين ، فصارت لهم الهيبةُ في المدينةِ وما حولها ، وانفسح الطريقُ لثورةِ الحق ، فشقَّتْه إلى القلوبِ والعقولِ بخطواتٍ آمنةٍ واثقةٍ بنصرِ اللّهِ تعالى ..

حقدُ اليهود

وأمضَّ النصرُ نفوسَ الحاقدين من يهودِ « بني قينُقاع » ـ المساكنين للمسلمين بالمدينة ، وكان الرسولُ ﷺ ، عقد معهم ـ ضمن سائرِ يهودِ المدينة ـ عهدَ موادعةٍ غداةَ هجرتِهِ إلى المدينة ، ويقضي العهدُ بترك الحربِ والأذى بين الطرفين ، فلا يحاربُهم ولا يحاربونه ، ولا يُعِينُونَ عليه أحدًا ، وإن داهمه بالمدينةِ عدوٌّ نصروا المسلمين عليه .. وأقرَّهم الرسولُ بموجب هذا العهدِ على دينهم .. ولكنَّ اليهودَ لا يعرفون الوفاءَ بالعهود .. فإنهم أرجفوا بقتلِ الرسولِ وهزيمةِ المسلمين في « بدرٍ » ولما جاء الخبرُ اليقينُ بالنصرِ المبين ، عبس اليهودُ وبسروا ، وتملَّكهم هوسُ الحقدِ المحموم ، حين علموا بمصرعِ دهاقينِ الوثنية ، وقد عبَّرَ « كعبُ بنُ الأشرف » عن حقدِ اليهودِ حين قال لمن حوله : أحقٌّ هذا .. ؟ أترون محمدًا قتل صناديدَ قريش . ؟ إن هؤلاء هم أشرافُ العربِ وملوكُ الناس .. والله لئن كان محمدٌ قتل هؤلاء فإن بطنَ الأرضِ خيرٌ من ظهرها .. وانطلق الطاغوتُ إلى مكةَ في غمرةِ حزنِ الوثنيةِ على قتلاها ، وهلعها على مصير أسراها ، وجعل يحرِّض على الثأرِ من المسلمين ، وينشد الأشعارَ في هجاءِ الرسول ، ويبكي قتلى الوثنيةِ بدموعِ التماسيح ..

وبدت البغضاءُ من أفواهِ يهودِ بني قَيْنُقَاع ، وما أخفت صدورُهم كان أكبر .. فراحوا يتوعَّدون المسلمين بنقْمَةِ قريش ، وانتهكوا حُرمةَ امرأةٍ من الأنصار .. فذهب الرسولُ إلى محلَّتهم ، ودعا رؤساءهم ، وحذَّرهم مغبَّةَ البغيِ ونَكْثَ العهد .. فلم يُجْمِلُوا في الرَّد ، بل أمعنوا في الاستفزاز ، وكشفوا القناعَ عن صدورِ محتقنةٍ بصديدِ العداوة ، وقالوا للرسول : لا يغرَّنَّك ما لقِيتَ من قومِك ، فإنهم لا علمَ لهم بالحرب .. ولو لقيتَنا لتعلمَنَّ أنَّا نحن الناس ..

فلم يكن للرسولِ ﷺ بدٌّ من أن يستأصلَ هذا الجيبَ الخبيث ، فحاصرهم وأجلاهم ، وبذلك حمى ظهرَ المسلمين من خيانتهم ، خلال الصراعِ الدائرِ بينه وبينَ الوثنيةِ في مكة ..

محاولةٌ يائسة

وكان الغرورُ قد لعب برأسِ أبي سفيانَ بن حرب .. فحلف ألاَّ يَمَسَّ رأسَه الماءُ حتى يغزوَ محمدًا .. فخرج في مئَتَيْ راكب يريد المدينة ، ولما قاربها ، أراد أن يقابلَ يهودَ بني النضير ليهيِّجَهم ، ويستعينَ بهم على حربِ المسلمين .. فأتى « سلامَ بنَ مشكم » فسأله عن أحوالِ المسلمين ، فأعلمه بسرِّهم ، ثم خرج من

عنده ، وأرسلَ رجالاً من قريشٍ إلى المدينة ، فحرقوا بعضَ نخلها ، وقتلوا رجلاً من الأنصار .. وما أن علم الرسولُ بالخبر ، حتى خرج في أثرِهِم ، فلم يلحق بهم ، لأنهم هربوا ، وأَلْقُوا ما معهم من جربِ « السويق » ليكونوا أقدرَ على مسابقةِ الريح .

الـهـجـومُ خـيـرُ وسـيـلـةٍ لـلـدفـاع

وبعد النصرِ في « بدرٍ » طبق الرسولُ « نظريةَ الدفاعِ الهجوميِّ » فكان يباغت أعداءه ، ويحبط خططَهم في مهدِها .. كذلك فعل مع « بني سليم » و « بني غطفان » و « بني قيْنُقَاع » ولما علم أن قريشًا قررت أن تسلك بقوافلِها إلى الشام طريقَ العراق ، بادر بإغلاقِ هذا الطريقِ في وجهها ، حيث أرسل سريةً فدائيةً بقيادةِ « زيدِ بن حارثة » فغنمت قافلةً كبيرة ، وعادت بها إلى المدينة .. وبذلك أحكم الرسولُ حلقاتِ الحصارِ حول تجارةِ قريشٍ مع الشام ..

وضاق على قريشٍ صدرُها .. فقد سفحت سيوفُ المظلومين دمَ أشرافِها ، وسفحت معه غرورَهَا وهيبتَهَا ، وسدَّت عليها طرقَ تجارتها .. فكانَ لا بدَّ للمصدور من أن ينفثَ وللموتورِ من أن يوجِّهَ ضربةً ما .. وهكذا اجتمع من بقِي من أشرافِها إلى أبي سفيان ـ قائدِ العيرِ التي جلبت عليها الهزيمةَ في بدر ـ وكانت لا تزال موقوفةً بدارِ الندوة ، لم تسلَّم لأصحابِها ، فقالوا له : يا أبا سفيان .. إن محمدًا وَتِرَنَا .. وقتل خيارَنا .. و إنا رضينا أن نتركَ ربحَ أموالنا في القافلة ، استعدادًا لحربه .. وقد رضيَ بذلك كلُّ من له فيها نصيب ..

ومن الفور طفق المترَفون يجيِّشونَ الرجالَ ، ويجهِّزون العتادَ .. فاجتمع من قريشٍ ثلاثةُ آلاف ، ومعها الأحابيشُ ـ وهم حلفاؤها من بني المصطلقِ ، وبني الهون بنِ خزيمة ـ كما خرج معها « أبو عامر الراهبُ الأوسيُّ » وكان قد فارق المدينةَ كراهيةً للرسولِ وتبعه عددُ قليلٌ ممن يشاكلونه حقدًا وإحنًا ..

وخرج جيشُ الباطل ، بحدِّه وجدِّه وأحابيشه ، متجهًا صوبَ المدينة ، تصحبه القيانُ والدفوفُ والمعازفُ ودنانُ الخمر .. واصطحب كثيرٌ من المترَفين نساءَهم ، التماسَ الحفيظةِ والثبات ..

وجعلوا على ميمنةِ الخيل : خالدَ بنَ الوليد .. وعلى ميسرتِها : عكرمةَ بنَ أبي جهل .. وحمل اللواءَ طلحةُ بنُ أبي طلحة ، وكانت قيادتُه إلى أبي سفيانَ أعدى أعداءِ الدعوةِ في ذلك الحين ..

ولم يزل الجيشُ سائرًا ، حتى نزل شمالَ المدينةِ عند جبلِ « أحد » .

وتجب الإشارةُ إلى أن الجيشَ لم يأتِ من الجهةِ الجنوبية ، مع أنها هي القريبةُ من طريق قدومه .. كما أنه لم يأت من جهةٍ أخرى ، لأن المدينةَ تحيط بها « الحرَّاتُ » البركانيةُ ، مكوِّنةً سلسلةً من الموانعِ الطبيعية ، التي يصعب عبورُها ، أو مهاجمةُ المدينةِ من ناحيتها .. فليس أمام المهاجمِ إلا القدومُ من تلك الجهة .. وحين حطَّ جيشُ الباطلِ رحالَه ، سرَّح خيلَه و إبلَه في زروعِ المسلمين ..

موقف الرسول

علم الرسولُ بمسيرِ الجيشِ الوثنيّ ، منذ انطلاقِهِ من مكة ، من كتابٍ بعث به إليه عمُّه « العباسُ بنُ عبد المطلب » فجمع المسلمين وأخبرهم الخبر ، وشاورهم كعادتِهِ في كيفيةِ المواجهة ..

وكان من رأيه أن يمكثَ المسلمون بالمدينة ، ويقاتلوا المهاجمين في السككِ والبيوت .. ولكن غلب الرأيُ القائلُ بلقاءِ المعتدين خارجَ المدينة ، كما حدث في « بدر » .

نزل الرسولُ على رأيِ الكثيرينِ عددًا ، فتجهَّزَ للقتال ، وصلَّى الجمعةَ في يومها ، لعشرٍ خلون من شوال من السنةِ السادسةَ عشرةَ للبعثة (الثالثةِ من الهجرة) وحرَّض المسلمين على القتالِ والصبرِ حين البأسِ والتذرُّع بتقوى الله ..

ثم لبس عُدَّةَ الحرب ، وظاهر بين درعين ، وتقلَّد السيفَ ، وألقى الترسَ وراءَ ظهرِه .. وعقد لواءَ المهاجرين لمصعبِ بنِ عمير .. ولواءَ الخزرجِ للحبابِ بن المنذر .. ولواءَ الأوسِ لأسيدِ ابن حضير .. وخرج من المدينةِ في ألفِ رجل ..

رَفْضُ الاستعانةِ باليهود

وبلغ جيشُ المسلمين « ثنيَّةَ الوداع » ونظر الرسولُ فرأى كتيبةً كبيرةً ، فسأل عنها .. فقيل : هؤلاء حلفاءُ « عبد اللهِ بنِ أبيٍّ بن سلول » من اليهود .. فقال : **إنا لا نستعين بكافرٍ على مشرك** ، وأمر بردِّهم خشيةَ غدرهم..

التسابقُ إلى الجهاد

وعرض رسولُ اللهِ ﷺ المجاهدين .. فردَّ من استصغره .. وكان فيمن ردَّه : « رافعُ بنُ خديج » و « سمرةُ ابنُ جندب » ثم أجاز رافعًا لما قيل له : إنه يجيد الرماية .: فبكى « سمرةُ » وقال لزوجِ أمِّه : أجازَ رسولُ اللهِ رافعًا ، وردَّني .. مع أني أصرعه .. فبلغ رسولَ اللهِ الخبرُ ، فأمرهما بالمصارعة .. فتصارعا .. وكان الغالبُ سمرةَ .. فأجازه .. وجاء « عمرو بنُ الجموح » وكان رجلاً أعرجَ شديدَ العرج .. فقال للرسولِ : إن أبنائي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجهِ والخروجِ معك .. فواللهِ إني لأرجو أن أطأَ بعرجتي هذه في الجنة ..

فقال الرسول : **أما أنت فقد عذرك اللّهُ تعالى ، فلا جهادَ عليك**.. **وقال لبنيه** : **ما عليكم ألاَّ تمنعوه .. لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة ..**

تخاذُلُ المنافقين

وبات رسولُ الله محلَّه ليلةَ السبت .. واستعمل على حرسِ الجيش « محمدَ بنَ مسلمةَ » وفي السَّحَرِ تحرَّك الجيشُ ، حتى إذا بلغ الشوط « بستان بين أُحُد والمدينة » رجع كبيرُ المنافقين « عبدُ

الله بنُ أُبَيٍّ بثلاثمئةٍ من أتباعه ، متعلِّلاً بأن الرسولَ لم يأخذ برأيِهِ في البقاء بالمدينة .. مع أنه يعلم أن الخروجَ من المدينة كان ثمرةَ حوارٍ مفتوحٍ بين الأنصارِ والمهاجرين ، وأن الرسولَ نفسه كان يرى البقاءَ بالمدينة .. ولكنَّ القاعدةَ الشعبيةَ قالت كلمتَها ، فحسمت القضية ..

وتبع المتخاذلين رجلٌ مؤمنٌ من الأنصار .. فصاح بهم : يا قوم .. أذكِّركم اللهَ ألاَّ تخذلوا قومَكم ونبيَّكم .. فقالوا له فيما يحكيه القرآن الكريم عنهم : (**لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَٰكُمْ**...) ، وهي حجةٌ ساقطةٌ سقوطَ هذه الضمائرِ في أوحالِ العفن ، إذ كيف يعلم الجبناءُ أن لن يكون هناك قتالٌ والمعركةُ لم تبدأ بعدُ ؟ .

وفي رأينا أنه كانت هناك مؤامرةٌ مبيَّتةٌ بين اليهودِ والمنافقين ، بحيث ينسحبون جميعًا في اللحظاتِ الحاسمة ، أو تنسحب شرذمةٌ منهم ، ثم تتبعها الأخرى ، بُغْيةَ تفتيتِ القوَّةِ المعنويةِ لدى المؤمنين ، وتمزيقِ صفوفِهم .. ولكنَّ الرسولَ استشفَّ الموقفَ بعينٍ ثاقبة ، فبادر بردِّ كتيبةِ اليهود ، ولأمرٍ أراده اللهُ انسحب المنافقون قبل أن يلتقيَ الجمعان .. وقد أثَّر انسحابُهم على بعضِ المسلمين ، فهمت طائفتان منهم بالتراجع ، لولا أن ربط اللّهُ على قلوبِ المؤمنين فثبتوا ومضوا مع قائدهم ..

مسرحُ المعركة

وارتاد رسولُ اللهِ أرضَ المعركة ، عند نزولِ المجاهدين ، فوجد جبلَ « أُحُد » كثيرَ الوديان .. يؤلِّف قوسًا كبيرًا ، مواجهًا للسهل الذي نزلت به قريش ، فنزل بالمجاهدين على عُدوةِ الوادي ، مسندًا ظهورَهم إلى الجبل ، ليكونَ حمايةً لهم من الخلف ، جاعلاً وجوهَهم إلى المدينة ، بحيث يستقبلون السهلَ الذي نزلت به قريش ، وتكونُ المدينةُ تحت أعينهم ..

ونظر الرسولُ إلى أرضِ المعركة ، بعينِ القائدِ البصير ، فوجد بجانبه ممَّا يلي الخلف بعضَ التلالِ المنقطعةِ عن الجبل .. وخشى أن يُؤْتَى المسلمون من أحدِ التلالِ القريبةِ منهم بحركةِ التفافٍ خلفية .. ومما يقوِّي هذه الخشيةَ ما يتمتع به المشركون من تفوُّقٍ في الخيالةِ والمشاة .. ولذلك بادر القائدُ ﷺ بوضعِ خطةِ المواجهةِ وَفْقَ معطياتِ الموقف ، فجاءت على النحو التالي :

ا ـ استدعى خمسين راميًا من المسلمين ، وأمَّرَ عليهم « عبدَ اللهِ بنَ جبير » وكلَّفهم باتخاذِ مراكزِهم على ذلك التلِّ القريب ، وحصر مَهمَّتَهم في أن ينضحوا خيلَ المشركين بالنبالِ كلَّما أقبلت .. وأمرهم بالثباتِ في أماكنهم ، وحذَّرهم من التهاونِ في تنفيذِ هذا الأمر ، لما يترتب عليه من هزيمة المسلمين ..

ب ـ أصدر أمرَه الصارمَ بألاَّ يبدأَ أَحدٌ القتالَ قبل أن تُصدِرَ القيادةُ أمرَها ..

جـ ـ أشعل الروحَ المعنويَّ في نفوسِ المجاهدين ، فخطبهم محرضًا على القتال ابتغاءَ وجهِ الله ، ومواجهةِ أعداءِ الدعوةِ بعزيمةٍ راسخة ، وحثَّهم على التكاتفِ والصبر ، وكان فيما قال : **ألقى الروحُ الأمينُ في رُوعي أنه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ أقصى رزقها ، لا ينقص منه شيءٌ و إن أبطأ عنها .. فاتَّقوا اللهَ وأجْمِلُوا في طلب الرزق .. لا يحملنَّكُم استبطاؤُه أن تطلبوه بمعصيةِ الله .. والمؤمنُ للمؤمن ، كالرأسِ من الجسد ، إذ اشتكى تداعىٰ له سائرُ جسده ..**

د ـ اعتمد الرسولُ طريقةَ القتالِ بالصفوف ، كما جرى الأمرُ في « بدرٍ » وجعل للمسلمين شعارًا يتعارفونَ به عند الالتحامِ واختلاطِ الصفوفِ هو : أمت أمت .. وتهيَّأ الرسولُ للصدام ، وهو في سبعمئةٍ من المجاهدين ، بعد أن تخاذل المنافقون قبلَ الوصولِ إلى المبدان .. وانتضى بيدِهِ سيفًا ، ولوَّحَ به على مشهدٍ من المسلمين وقال :

من يأخذُ هذا السيفَ بحقِّه ؟

فتقدم إليه جماعةٌ من المسلمين فأمسكه عنهم ، حتى قام « أبو دجانة سماكُ بنُ خرشَة » فقال : وما حقُّه يا رسولَ الله ..؟

فقال : **أن تشرب به العدوَّ حتى ينحني ..**

قال أبو دجانة : أنا آخذه بحقِّهِ يا رسولَ الله .. فأعطاه إياه ..

الصدامُ الكبير

وبدأ القتالُ بالمبارزة ، حين خرج رجلٌ من صفوفِ المشركين .. فبرز له « الزبيرُ بنُ العوام » فقتله بسيفِ التوحيد .. وصرع « عليٌّ بنُ أبي طالبٍ » حاملَ لواءِ الشركِ « طلحةَ بنَ أبي طلحة » فحملَ اللواءَ أخوه « عثمانُ » فأرداه حمزةُ قتيلاً .. فحمله أخٌ لهما يدعى « سعيدُ بنُ أبي طلحة » فرماه سعدُ بنُ أبي وقاص بسهمٍ قضى عليه .. فتناوب اللواءَ بعده أربعةٌ من أولادِ طلحةَ بنِ أبي طلحة ، فخرُّوا جميعًا يتشحّطون في دمائهم .. ثم حملت خيالةُ المشركين على المسلمين ثلاثَ مرات .. فكان المسلمون في كلِّ مرةٍ ينضحونهم بالنبالِ فيتقهقرون بلا نظام .. ثم التقى الجمعانِ وتزاحفَ الجيشان ، وقامت « هندُ بنتُ عتبة » ـ زوجُ أبي سفيان ـ فيمن حضر معها من النسوة المشركات ـ يضربن بالدفوف خلفَ الرجال ، ويحرضنهم على القتال ، فكانت تقول :

ويـهـًا بني عبدِ الدار ويها حماةَ الأدبـــار

ضربـا بكــل بتــار

وتَعِدُ المأفونين بالمتعةِ الزائفةِ فتقول :

إن تُقْبِلُوا نعـــانقْ

ونفـــــرشِ النمارقْ

أو تُـدبِـرُوا نفـارقْ

فـــــراقَ غير وامـقْ

وكلَّما سمع الرسولُ صراخَ النسوة ، رفع رأسَه إلى السماء وناجى ربَّه قائلاً : **اللهمَّ بك أجول .. وبك أصول .. وفيك أقاتل .. حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيل ..**

البطولةُ الخارقة

وتفجَّرت حماسةُ المؤمنين في مقاتلةِ المعتدين .. وسجَّل التاريخُ في صفحاتِ البطولةِ مواقفَ خالدة ، حفزت إليها العقيدةُ الصادقة ، وتألَّق على هذه الصفحاتِ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللّهَ عليه .. منهم ، أسدُ اللهِ « حمزةُ بنُ عبدِ المطلب » فقد برز في ساحةِ القتالِ كالأسدِ الهصور ، يقاتل بسيفين .. ويراه النبيُّ

فيصيح من فرطِ الإعجاب : **قاتلِ أي أسد .. قاتل أي أسد** .. و يقاتل الأسدُ حتى تصيبَه رمْيةٌ غادرةٌ من عبدٍ جبان ..

ومنهم : « عليٌّ بنُ أبي طالب » الذي راح يجلجل في الميدان صائحًا : أنا أبو القصم .. فيناديه صاحبُ لواءِ المشركين : هل لك يا أبا القصمِ في البراز .. ؟ فيجيبه الفارسُ المؤمنُ : أجل .. فيتبارزان .. وتختلف الضربتان ، ثم يسقط حاملُ اللواءِ قتيلاً ..

ومنهم : « أبو دجانةَ » فقد امتشق سيفَ الرسول ، واعتصب بعصابةِ الموت ، وخاض المعمعةَ منشدًا :

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفحِ لدى النخيل

ألاَّ أقومَ الدهرَ في الكبولِ ... أضرب بسيفِ اللّهِ والرسولِ

وجعل لا يلقَى أحدًا إلا وأشرب السيفَ من دمِه..

اختلالُ الميزان

وسيطرت سيوفُ التوحيدِ على المعركة ، وخطبت على منابرِ الرقابِ المشركة .. ولاحت بوادرُ النصرِ للمسلمين ، فقد انكشف الأعداء ، وألقت النساءُ الدفوفَ وولين هاربات مولولات .. ولما رأى المسلمون ذلك ، رجعوا عن الهاربين إلى المغانِم يجمعونها ، وحسبوها « بدرًا » ثانيةً ، فتعجَّلوا الحكمَ على العدوِّ بالهزيمة ..

وهنا بدأ ميزانُ المعركةِ يختلُّ فجأة ، إذ إن معظمَ الرماةِ تركوا مراكزَهم ، ونسوا في غمرةِ النصرِ الموهومِ تحذيرَ نبيِّهم ، فقال بعضُهم : لقد ظهر أصحابُكم .. فماذا تنتظرون ؟ فقال الأميرُ « عبدُ اللهِ بنُ جبير » أنسيتم ما قال لكم رسولُ الله ؟ فقالوا : واللهِ لنأتينَّ الناسَ فلنُصيبنَّ من الغنيمة .. وبادروا إلى المشاركة في جمعِ الحطام ، فانكشف عسكرُ المسلمين .. وانتهز خالدٌ وعكرمةُ هذه اللحظة ، فحملوا على الرماةِ الذين ثبتوا مع أميرِهم فقتلوهم جميعًا ، ثم فاجؤُوا المسلمين من الخلف ، وهم لا يزالون في وَهْمِ النصر ، فأعملوا فيهم سيوفَهم ، فانتكثَتْ صفوفُ المسلمين ، واختلطوا .. وجعلوا يقتتلون على غيرِ شعار ، يضرب بعضُهم بعضًا في ذهولِ المفاجأة .. وفي هذه الأثناء ، التقطت إحدى المشركاتِ اللواءَ المطروحَ تحت الأقدام ، ورفعته على أعينِ الهاربين ، فاجتمعوا حولَه ، وانقلب الموقفُ رأسًا على عقِب ، وألفى المسلمون أنفسَهم بين شِقَّيْ الرَّحى ..

القائدُ وسطَ الأهوال

واستطاع المشركون أن يصلوا إلى موضعٍ قريبٍ من الرسول ، وغشَوْه يريدون قتلَه ، فرمى القائدُ عنه قوسَه ، حتى اندقت سيتُها

(طرفها) ورماه عتبةُ بنُ أبي وقاصٍ بحجر كسر أنفَه ، وشجَّ وجهَه ، وجرح شفتَهُ السفلى .. وأقبل « ابنُ قميئةَ » يريد قتلَه . فدافع عنه « مصعبُ بنُ عمير » فقتله ابنُ قميئة ، وهو يرى أنه قتل الرسول .. فرجع وهو يصيح . قتلتُ محمدًا .. قتلتُ محمدًا .. وتسامع المسلمون بالخبرِ فزُلزلتْ نفوسُهُم ، وخارت عزائمُهُم .. فقالت طائفةٌ منهم : إن كان محمدٌ قُتِلَ فعلامَ نقاتل ؟ .. وقالت أخرى : من لنا بِمَنْ يأتي عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ليأخذَ لنا أمانًا من أبي سفيان ؟ وقالت ثالثةٌ منافقةٌ : إن كان محمدٌ قُتِلَ فارجعوا إلى دينِكم الأول .. وانهزمتْ طائفةٌ إلى المدينة .. وبقيت طائفةٌ لا تدري ماذا تفعل في عمايةِ الموقف ، ووسط البلاءِ العظيمِ برز إيمانُ المؤمنين مشرقًا كالفجر .. باطشًا كطعنةِ الخنجر .. فهذا أنسُ بنُ النضرِ يصيح في المسلمين : إن كان محمدٌ قتل فإن ربَّ محمدٍ لم يُقْتَل .. وما تصنعون بالحياةِ بعدَ رسولِ الله ؟ قوموا فقاتلوا على ما قاتَلَ عليه .. وموتوا على ما ماتَ عليه .. ثم يقول : اللهمَّ إني أعتذرُ إليك مما يقول هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ويشدُّ بسيفه فيقاتل حتى تتلقَّاه الملائكةُ شهيدًا ..

وهذا سعد بنُ الربيعِ يقاتلُ الجموع حتى يسقط مثخنًا بضرباتِ السيوف .. وقد وجد به المسلمون رمقًا بعد نهايةِ

المعركة .. فقال لهم وأنفاسُ الحياةِ تتحشرج في صدرِه .. اللهَ وما عاهدتم عليه رسولَه .. فواللهِ ما لكم عندي عذرٌ إن خَلَصَ إلى رسولِ اللهِ سوءٌ ومنكم عينٌ تطرُف ..

وثبت حولَ القائدِ حفنةٌ من المغاوير ، كانوا أشدَّ ثباتًا من جبلِ أحد .. منهم : أبو طلحةَ الأنصاريُّ .. استمر بين يديْ رسولِ الله يمنع عنه بجحفتِهِ (الدرقة التي يتستَّر فيها المحارب بيده) وكان رضي اللهُ عنه راميًا لا يخطىء .. فنثر كنانتَه بين يديْ الرسول ، وراح يرشق الطواغيتَ بسهامه ، ويقول لقائده : وجهي فداءٌ لوجهك .. وكان الرسولُ إذا رأى أحدًا من المسلمين ومعه كنانةٌ يقول له : **انثرها لأبي طلحةَ** .. وكان ينظر إلى القومِ ليرى ماذا يفعلون ، فيقول له أبو طلحةَ : يا نبيَّ الله . بأبي أنت وأمي .. لا تنظرْ يصبْك سهمٌ من سهامِ أعداءِ الله . نحري دون نحرك .. وقد شَلَّتْ يدُه ووُجِدَ به سبعٌ وعشرون جراحة .. ومنهم : أبو دجانة .. كان ينحني على الرسولِ ليحميَه من النبال ، جاعلاً من ظهره ترسًا ، حتى كثرت فيه السهام ..

ومنهم : زيادةُ بنُ الحارث .. قاتل عن قائدهِ ، حتى أصابت الجراحُ مقاتله .. ومنهم : سعدُ بنُ أبي وقَّاص .. كان يرمي بالنبلِ فيقول له الرسول : **ارمِ فداك أبي وأمي** ..

ومنهم نسيبةُ بنتُ كعب ، التي كانت تسقي القومَ في بدايةِ

المعركة ، فلما انهزم المسلمون ، انحازت إلى رسولِ الله ، فباشرت القتالَ بالسيف ، حتى خلَصْت إليها الجراح .. وتمالك الرسولُ نفسَه يريد الشِّعب ، فسار مع أصحابه الصامدين ، فسقط في حفرةٍ من الحفر التي حفرها أبو عامر الراهبُ الفاسقُ ليقعَ فيها المسلمون ، فدخلت حلقتان من المغفرِ في وجنتيه ﷺ (المغفر زرد يلبسه المحاربُ تحت القلنسوة) فأخذ عليٌّ بيده ، ورفعه طلحة .. وعالج أبو عبيدة إحدى الحلقتين حتى نزعها ، فكُسرت ثنيةٌ الرسول ، ثم عالج الحلقةَ الثانيةَ حتى نزعها فكُسرت ثنيتُه الأخرى .. واستبسل المجاهدون من حوله ، يفدونه بالمهجِ الغوالي ، حتى شقُّوا طريقَهم إلى الشِّعب ، ورآه كعبُ بنُ مالك فعرفه ، فأخذ يصيح : يا معشرَ المسلمين : أبشروا .. هذا رسولُ الله .. وسمع المشركون النداء ، فأقبل « أُبيٌّ بنُ خلف » على فرسهِ يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا .. فتناول الرسول حربةً وطعنه بها طعنةً تقلَّب منها عن فرسه مرارًا وهلك بسببها .. وجاءت ابنتُه فاطمة .. فغسلت عنه الدم ، ثم أخذت قطعةً من حصيرٍ فأحرقتها ووضعتْها على الجرحِ فاستمسك ..

الالتئامُ من جديد

وثاب إلى الرسولِ ثلاثون مجاهدًا ، فحموه حتى كشفوا المشركين عنه .. وأخذ المسلمون ينثالون إلى نبيِّهم ، فلامهم على الفرار .. فقالوا : يا رسولَ اللهِ فديناك بآبائنا وأمهاتنا .. أتانا الخبرُ أنك قُتِلْت .. فرعبتْ قلوبُنا ، فولَّينا مدبرين ..

وأراد الرسولُ أن يعلوَ الصخرةَ التي في الشِّعب ، فلم يقدر لشدَّةِ ما أصابه من رهق ، فحمله طلحةُ بنُ عبيدِ الله ، حتى استوى على الصخرة .. ونظر فرأى جماعةً من المشركين على ظهرالجبلِ يقودهم خالدُ بنُ الوليد ، فقال : **اللهمَّ لا ينبغي لهم أن يعلونا** .. فنهض إليهم نفرٌ من الرماة ، فرموا خيلَهم بالنبالِ حتى انهزموا .. وعلا المسلمون الجبل ..

مقارنة

وانهمكت هندُ بنتُ عتبة ، ومعها نسوةٌ مشركات ، في التمثيلِ بالشهداء ، فكنَّ يجدعنَ الأنوفَ ، ويقطعنَ الآذانَ ، ويتخذْنَ منها القلائدَ والخلاخلَ والحلقان .. وبقرت هندُ بطنَ حمزة ، وأخرجت كبِدَه لتأكلَها ، لولا أن سقطت منها على الأرض .. فيما

كانت المرأةُ المسلمةُ تحرِّض على القتالِ في سبيلِ الله ، كأمِّ أيْمنَ التي كانت تصيح بالمنهزمين : هاتوا سيوفكم ، وخذوا المغازل ..

أو كانت تقاتل دونَ رسولِ الله كالبطلةِ نسيبة بنتِ كعب ..

أو تواجه قدرَ الله برباطةِ جأشٍ كصفية أختِ حمزةَ فإنها حين رأت أخاها وقد بُقِرَ بطنُه عن كبده ، وجُدِع أنفه ، استرجعت واستغفرت ربَّها لأسدِه الشهيد .. وكالمرأة الدينارية ، التي نُعيَ إليها زوجُها وأخوها وأبوها .. فما كان من ردِّها إلا أن قالت للناعين : ما فعل رسولُ الله .. ؟ فقالوا : هو بحمدِ اللهِ كما تحبِّين .. فتردُّ قائلةً : كلُّ مصيبةٍ بعدَه هينة ..

إنه فارقٌ ساحق .. بين نفوسٍ متوشحةٍ بالوثنية ، ونفوسٍ صاغها الإيمانُ باللهِ فكانت آمنةً غايةَ الأمن ..

رجوعُ الجيش الوثني

رأى المشركون أنهم لم يستطيعوا القضاءَ على المسلمين ، بعد أن التأمت صفوفُهم .. فصعد أبو سفيانَ الجبلَ على مقربةٍ منهم وراح ينعق بأعلى صوته : أفي القوم محمدٌ .. أفي القوم ابنُ أبي قحافة ؟ أفي القومِ عمرُ بنُ الخطاب .. ؟ فلم يجبه أحدٌ .. فالتفت إلى أصحابه يقول لهم : أما هؤلاء فقد قُتِلُوا .. فما ملك عمرُ نفسَه

فصاح : كذبتَ يا عدوَّ الله .. إن الذين عددْتَ لأحياءٌ كلُّهم .. وقد بقي لك ما يسوؤك ..

فقال أبو سفيان : يومٌ بيومِ بدر .. والحربُ سجال .. ثم أخذ يرتجز : اعلُ هُبَل .. اعلُ هُبَل .. فأجابه المسلمون : اللهُ أعلىَ وأجلّ ..

وهبط أبو سفيان ، وقفل راجعًا ، بعد أن رأى اجتماعَ المسلمين من جديد ، وتحفُّزَهم للقتالِ إذا اقتضى الأمر .. ولو كان في وسعِ أبي سفيان أن يحاصرَ المسلمين لحاصرهم ، أو يطارِدَهم لطاردهم ، أو ينالَ منهم أكثر مما نال لفعل ..

بعد المعركة

وتفقد الرسولُ الشهداء .. وحزن على حمزة حزنًا عميقًا .. وصلى عليهم ، ثم أمر بدفنهم بأُحُد ، كلُّ شهيدٍ بثوبهِ الذي استُشهد فيه .. وكان يدفن الرجلين والثلاثةِ في لحدٍ واحد ، لما كان عليه المسلمون من الجهد ، فكان يشقُّ عليهم أن يحفروا لكلِّ شهيدٍ حفرة ..

الإرادةُ العنيدة

ولما رجع الرسولُ إلى المدينة ، توجَّس أن يعودَ المشركون ليتمِّموا انتصارَهم ، فنادى بالخروج خلف العدوِّ ، وأمر ألاَّ يخرجَ إلا من كان معه بالأمس ، ممن محَّصتْهُم المحنةُ القاسية .. فاستجاب المجاهدون ، وخرجوا يدًا على السلاح وأخرى على الجراح .. ولم يكن اللواءُ قد حُمِل بعد .. فأعطاه لعليِّ بنِ أبي طالب .. وسار الجيشُ حتى بلغ « حمراءَ الأسد » على ثمانيةِ أميالٍ من المدينةِ في طريقِ مكة .

وأثبتت الأحداثُ صحةَ تقديرِ القائد ﷺ ، فإن المعتدين تلاوموا على تركِ المسلمين من غير أن يغيروا على مدينتهم ، فأزمعوا الرجوع .. ولكن لما بلغهم خروجُ الرسولِ لمطاردتهم ، ظنوا أنه جاء بجمعٍ كثيف ، يتحرَّق إلى القتال ، فقذف اللهُ في قلوبهم الرعبَ ، ولوَّوْا أعناقَ الخيلِ والإبلِ إلى مكة ..

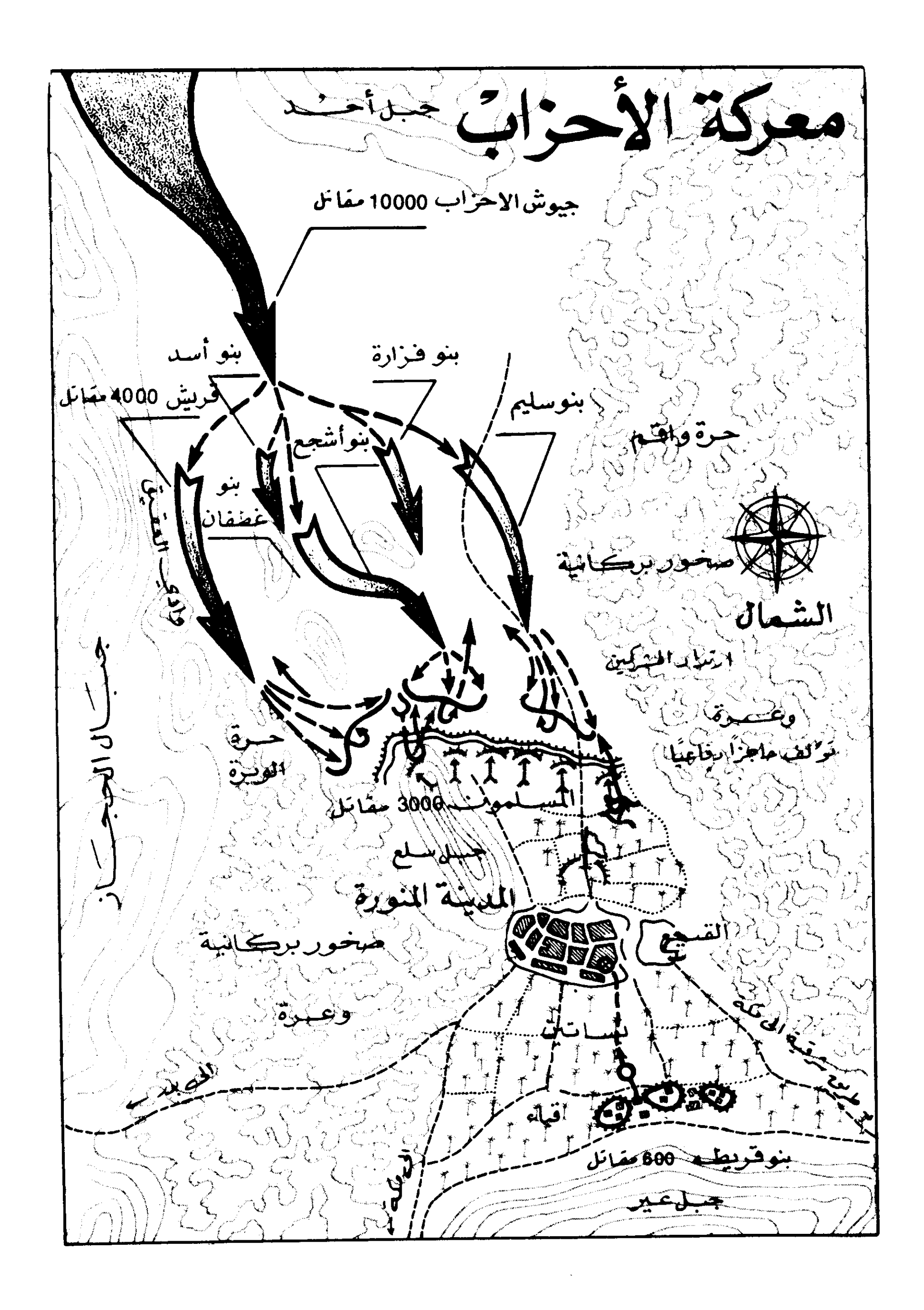
نتائجُ المعركة

انتصر المسلمون في الصفحةِ الأولى من المعركة ، ولكنهم هُزموا عندما تخلَّوْا عن المطاردة ، وترك الرماةُ مواقعَهم .. ثم اجتمعت

صفوفُهم بفضلِ ثباتِ الرسول ، وبثِّهِ الحمَّيةَ والبأسَ في نفوسهم .. ووجدت قريشٌ أن إرادةَ القتالِ لم تُهزَم لدى المسلمين ، وأن الخسارةَ لم تنل منهم إلا بمقدارِ ما ضاعفت إصرارَهم والتفافهم حول نبيِّهم ، فآثرت الانسحاب ، ولم تحقِّق الغرضَ الذي خرجت من أجله ، وهو القضاءُ على المسلمين .. فالمعركةُ لم تُحسَمْ لأي فريقٍ من المتحاربَيْن .. ولكنَّ المسلمين أفادوا من « أُحد » دروسًا بالغة .. من بينها : أن يحرصوا على إفناءِ العدوِّ كحرصه على إفنائهم ، وأن يقتدوا بنبيِّهم في البسالةِ والتضحية ، وملاقاةِ الموتِ بإيمانٍ ثابت .. وأن يطهِّروا صفوفَهم من الضعفِ والجبنِ والتخاذل ، وألا تتزلزلَ نفوسُهم إذا تخاذل المنافقون ، قبلَ المعركةِ أو خلالَها ، وقد عبَّرَ القائد عن استيعابه لدروسِ المعركةِ حين قال : (**لن يصيبوا منا مثلَها أبدًا ..**) .

3

عندما حاصرت
جيوش الباطل مدينة الثورة..



معركة الأحزاب
جبل أحد
جيوش الاحزاب 10000 مقاتل
بنو أسد
قريش 4000 مقاتل
بنو فزارة
بنوسليم
بنوأشجع
بنو
غطفان
حرة واقم
صخور بركانية
الشمال
حرة
الوبرة
المسلمون 3000 مقاتل
جبل سلع
المدينة المنورة
صخور بركانية
وعرة
القبح
بساتين
قباء
بنوقريظة 800 مقاتل
جبل عير

عندما حاصرت
جيوش الباطل مدينة الثورة ..

نحن نعرف من تاريخِ الحركةِ الصِّهيونية ، أنها ارتمت في أحضانِ الاستعمارِ التوسعيِّ الألمانيِّ في مطالعِ هٰذا القرن ، لتحقِّقَ مخطَّطاتِها الإجرامية ، التي رُسمت تفاصيلُها في مؤتمراتِ شياطين اليهود ، وكان مركزُ الحركةِ الصِّهيونية هو مدينةَ « برلين » .

وفي خلال الحربِ العالميةِ الأولى ، باعت الحركةُ الصِّهيونية ولاءها الزائفَ للاستعمارِ التوسعيِّ البريطانيِّ مقابلَ وعدِ « بلفور » .

ثم باعت ولاءها مرةً ثالثةً للاستعمارِ التوسعيِّ الأمريكيِّ الصليبي ، خلال الحربِ العالميةِ الثانية ، بثمنٍ مناسبٍ هو : قيامُ دولةٍ لليهودِ في قلبِ الأمةِ العربية .

ومنذ أربعةَ عشرَ قرنًا من الزمان ، باع اليهودُ دينَهم لعابدي الأوثانِ في مكة ، لقاءَ أن يستجيبوا لتحريضِهم على سحقِ الثورةِ الإسلاميةِ في المدينة ، وانخدعِ بهم عابدو الأوثان ، فجيَّشوا

الجيوش الجرارةَ ، في محاولةٍ لاكتساحِ ثورةِ الحق ، وعلى أبوابِ المدينةِ قامت معركةٌ من أكبرِ المعاركِ بين الحقِّ والباطلِ ، صمدت فيها قوى الحقِّ صمودًا أعيا قوى التحالفِ الوثنيِّ اليهوديّ ، وأنزل اللهُ نصرَه على المجاهدين الصابرين ، فردَّ الذين كفروا بغيظِهِم لم ينالوا خيرًا ، وأبقى دعوةَ الحقِّ عزيزةَ الجانبِ ، لتطبعَ حياةَ الإنسانيةِ بطابعها العميق .

كان ذٰلك في السنةِ الثامنةَ عشرةَ للبعثةِ المحمدية ، حيث قَدِمَ إلى قريشٍ بمكَّةَ وفدٌ من يهودِ بني النضير ، والتقوا بسادةِ قريش ، فنزل كبيرُهم على أبي سفيانَ فأحسن مثواه ، ونزل باقي الوفدِ على قريش ، وحرَّضوا على حربِ الرسولِ ومَنْ معه ، وقال « أهلُ الكتابِ » لعابدي الوثن : نحن معكم حتى نستأصلَ شأفتَهم ، فقال لهم عابدو الأوثان ، أهلاً ومرحبًا ، أَحَبُّ الناسِ إلينا من أعاننا على حربِ محمد ، ولكنا لا نأمن أن يكونَ هٰذا مكرًا منكم ، فإن أردتم الحِلْفَ معكم فاسجدوا إلى هٰذين الصنمين ، حتى نطمئنَّ إليكم ، ولم يجد المغضوبُ عليهم غضاضةً في السجودِ للأوثانِ فسجدوا ، ثم قال لهم عابدو الأوثان : يا معشرَ يهود ، أنتم أهلُ الكتابِ الأول ، والعلمُ بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفدينُنا خيرٌ أم دينُه ؟ ولم يتردَّد الوفدُ الخاسرُ في أن يجيب كاذبًا : بل دينُكم خيرٌ من دينه ، وأنتم واللهِ أهْدَى سبيلاً مما عليه

محمد ، و إلى هٰذه الواقعةِ يشير القرآنُ الكريمُ في قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُمْ مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * ﴾ « 51 ـ 55 النساء » .

والآياتُ تدمغهم بالجهل والبخل والمغالطةِ وحسدِ الأمةِ العربية ، حيث جاء منها خاتَمُ الأنبياء ، كما تتوعَّدهم بسوءِ المصير .

وقد فرح سادةُ الوثنية بالوفدِ الضال ، وبدعوتِهِ إلى حربِ المسلمين ، وعندئذٍ خرج من بطونِ قريشٍ خمسون رجلا ، وألصقوا أكبادَهم بالكعبة ، متعلِّقين بأستارها ، متحالفين على أن يكونوا يدًا واحدةً على محمدٍ ما بقيَ منهم رجلٌ واحد .

ثم ذهب وفدُ الفتنةِ إلى « غَطَفَانَ » فدعوهم إلى حربِ رسولِ الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشًا ستكون معهم جميعًا ، وجعلوا لهم تمرَ « خيبرَ » سنةً إن هم ناصروهم .

ويعلِّق الكاتبُ اليهوديُّ (إسرائيل ولفنسون) في كتابه :

(تاريخ اليهود في جزيرة العرب) على تبريرِ اليهودِ غايتَهم بهٰذه الوسيلةِ الخسيسة ، فيقول :

« كان من واجبِ هؤلاء اليهودِ ألاّ يتورَّطوا في مثلِ هٰذا الخطإِ الفاحش ، لأنهم ـ بالتجائهم إلى عبدةِ الأصنام ـ إنما كانوا يحاربون أنفسَهم ، ويناقضون تعاليمَ التوراةِ التي توصيهم بالنفورِ من أصحابِ الأصنامِ والوقوفِ معهم موقفَ الخصومة » .

نـجـاحُ الـتـحـريـض

حقَّق دعاةُ الفتنةِ بغيتَهم في إسعالِ نارِ الحرب ، فتجهزت قريشٌ وأتباعُها ، وغطفانُ وأتباعُها ، وانضمَّت إليهما قبائلُ بني مرة ، وفزارة ، وبني أشجع ، وبني سليم ، وبني أسد ، فكانت عِدَّةُ الجيشِ بما فيه من عربٍ ويهودَ زهاءَ الإثني عشرَ ألفًا ، انقسموا إلى ثلاثِ فرقٍ وأُسنِدَتْ قيادتُهم جميعًا إلى « أبي سفيان ابن حرب » وخرجوا بقضِّهم وقضيضِهم ، وخيلِهم وأبعرتِهم ، لا يشكُّون في ظفرِهم بمحمدٍ والمؤمنين .

مـوقـفُ الـرسـول

نَمَى إلى علمِ النبيِّ ﷺ نبأُ هٰذه التجهيزات ، فاستشار

المسلمين كعادته ، ومن خلالِ محاوراتِ الشورى عرض « سلمانُ الفارسيُّ » فكرةَ الخندق ، قائلاً : يا رسولَ الله ، إنا كنا ببلادِ فارس ، إذا حوصرنا خندقْنا علينا ، فاستحسن القائدُ الفكرة ، وخرج في ثلاثةِ آلافٍ من المسلمين ، وارتادَ موضعَ الخندق ، واستقرَّ الرأيُ على أن يحفرَ في الجهةِ الشماليةِ من المدينة ، وهي الجهةُ المكشوفةُ منها التي لا تحميها البيوتُ العالٰية ، فجعل جبلَ « سلع » خلفَ ظهره ، وحفر الخندقَ ممتدًّا من الحَرَّةِ الشرقية ، إلى الحَرَّةِ الغربية ، وقسَّمَ حفرَهُ بين المسلمين ، فخصَّص لكلٍّ عشرةٍ منهم أربعين ذراعًا ، وخطَّه لهم حتى لا يعدلوا عنه .

وتجلَّت عزيمةُ المجاهدين في سرعةِ إنجازِه ، وضرب القائدُ أروعَ الأمثلةِ في العمل ، فقد كان يحفر مع أصحابِه ، ويحمل الترابَ والأحجارَ على ظهره ، وكان أبو بكر وعمرُ يحملان الترابَ في أثوابهما لفقدِهما المكاتل ، وكان من أكثرِ الناس عملاً في الخندق « سلمانُ الفارسيُّ » صاحبُ فكرته ، حتى قال الأنصارُ : هو منّا ، وقال المهاجرون : هو منّا ــ افتخارًا به ــ فقال النبي ﷺ : **سلمانُ منَّا أهلَ البيت.**

وقفةٌ على الخندق

ولا بد أن نقفَ مليًّا ، نتأمل هٰذا العملَ الدفاعيَّ الخارق ،

فقد كان طولُ الخندق أكثرَ من ستةِ كيلومترات ، وعرضُه نحو ستةِ أمتار ، لأنه صُمِّمَ ليحولَ بين الخيل وبين المدينة ، وقفزةُ الجوادِ الجيدِ تقارب هٰذا المقدار ، أما عمقُه فكان قرابةَ الثلاثةِ أمتارٍ كي لا يستطيعَ الجوادُ أن ينهضَ إذا سقط فيه ، وقد أُخرجت الرمالُ والصخورُ ناحيةَ المدينة ، ليضمن المسلمون ساترًا يحاربون من خلفه ، ويرمون عدوَّهم وهو في أرضٍ مكشوفة ، ولكيلا يستغلَّها في ردمِ الخندقِ إذا أُخرجَت جهتَه .

وتنحنى الرؤوسُ إعجابًا ، إذا علمنا أن هٰذا العملَ تَمَّ في عشرين يومًا ، وسط ظروفٍ متناهيةٍ في صعوبتِها وأخطارِها فمن ظروفٍ اقتصادية ، حيث كان الوقتُ زمنَ عُسْرةٍ وضيق ، إلى ظروفٍ تتعلَّق بمنطقةِ الحفر ، حيث قسوةُ الصخرِ ، إلى ظروفٍ نفسيةٍ حيث هاجسُ الخوفِ من وصولِ الأحزابِ قبل إتمامِ الخندق يشغل بالَ المجاهدين .

استكمالُ خطةِ الدفاع

وأمر القائدُ ﷺ بأن تحصَّنَ جدرانُ البيوتِ التي تواجه مَأْتَي العدوّ ، وأن تُخْلَى البيوتُ التي تقع خلفَ الخندق ، وأن توضعَ النساءُ والذرارِي في البيوتِ المحصَّنة ، كما أمر بأن تُقطعَ زروعُ

المسلمين خارجَ المدينة ، حتى يُحرَمَ العدوُّ من إطعامِ خيلِه و إبلِه ، واتَّفق مع يهودِ بني « قريظة » على حمايةِ جنوبِ المدينة ، حيث كانوا يقيمون به ، واستعرض الفتيانَ فَمنْ رآه بلغَ خمسَ عشرةَ سنةً أبقاه ، ومن كان صغيرًا ردَّه إلى أهله ، وأعطى لواءَ المهاجرين زيدَ بنَ حارثة ، ولواءَ الأنصارِ سعدَ بنَ عبادة ، واتخذ المجاهدون مواقعَهم خلفَ الخندق ، وشدَّد القائدُ على اليقظةِ في الحراسة ، وجعل لكلٍّ من الأنصارِ والمهاجرين شعارًا يتعارفون به .

المفاجأة

وأقبلت الأحزابُ ، فتملَّكتْها الدهشةُ حين رأت الخندق ، فوصفته بأنه مكيدةٌ لا عهدَ للعربِ بها ، فعسكرت في مواجهتِه ، ووجدت نفسَها إزاءَ مشكلةٍ تموينيةٍ صعبة ، حيث كان المسلمون قد سبقوها إلى قطعِ الزروع ، فبدأت تحسب للأمرِ حسابًا جديدًا ، بعد أن كانت تمنِّي نفسَها بغارةٍ خاطفة ، تثخن فيها المسلمين قتلاً وجراحًا وأسرًا ، ثم تعود مثقَّلةً بالغنائمِ والأسلاب .

وكان المسلمون قد جعلوا ظهورَهم إلى جبلِ « سلع » وضربوا هناك عسكرَهم ، والخندقُ بينهم وبين الأعداء ، ومضت مدةٌ

وليس بين المعسكرين إلا التراشقُ بالحجارةِ والنبال .

اقـتـحـامُ الـخـنـدق

ورأى الأعداءُ في الخندقِ مضيقًا ، فأقبل « نوفلُ بنُ عبدِ الله » على فرسه ، فأراد اقتحامَه ، فوقع في الخندقِ واندقَّت عنقُه ، ولما طال المقامُ بالمعتدين أقبلت طائفةٌ منهم بقيادةِ « عمرِو ابن وُدّ » فتيمَّمتْ مكانًا ضيِّقًا من الخندق ، فضربت خيلَها فاقتحمت منه ، فجالت بفرسانها في السبخةِ بين الخندقِ وسلع ، وخرج عليٌّ بنُ أبي طالبٍ في نفرٍ من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرةَ التي أقحموا منها خيلَهم ، وطلب عمرُو بنُ وُدٍّ المبارزة ، فتصدى له عليٌّ ، فقال له : يا عمرو ، قد كنتَ عاهدتَ اللهَ ألاَّ يدعوَك رجلٌ من قريشٍ إلى إحدى خلَّتين إلا أخذتَها منه ، قال له : أجل ، قال عليٌّ : فإني أدعوك إلى اللهِ و إلى رسولِهِ و إلى الإسلامِ قال : لا حاجةَ لي بذلك ، قال : فإني أدعوك إلى النزال ، فقال له : لِمَ يا ابنَ أخي؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلَك ، قال له عليٌّ : لكني واللهِ أحبُّ أن أقتلَك ، فحمى أنفُه عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه فعقره ، وضرِب وجهه ، ثم أقبل نحو عليٍّ ، فتنازلا وتجاولا ، ثم سقط صريعَ البغيِ بسيفِ الحق ،

وهمّ المسلمون بقتل من اقتحم الخندق ، فولُّوهم الأدبارَ مسرعين .

خـيـانـة الـيـهـود

أدرك يهودُ بني النضير ـ وهم الذين حزَّبُوا أحزابَ الوثنيةِ ـ أن المؤامرةَ لم تؤتِ ثمرتَها المرجوَّة ، فإن خطةَ المسلمين الدفاعيةَ فرضت على عدوِّهم أن ينتظر على غيرِ أمل ، وخشوا أن يدبَّ اليأسُ إلى صفوفِ حلفائهم ، فيرجعوا دون تحقيق ما خرجوا له ، فتسلَّل كبيرُهم « حُييُّ بنُ أخطب » إلى بني جلدتِهِ في « بني قريظة » والتقى زعيمَهم « كعبَ بنَ أسد » ليحرِّضه على نقضِ العهدِ مع المسلمين ، والوقوفِ إلى جانبِ الأحزابِ المتأهبةِ لاقتحامِ المدينة ، والقضاءِ على الثورةِ الإسلامية ، وقال له وهو يحاوره : إني جئتُك بعزِّ الدهر ، وبحرٍ طام ، قال له كعبٌ وما ذاك؟ قال : جئتُك بقريشٍ على قادتِها وسادتِها ، وغطفانَ على قادتِها وسادتِها ، وقد عاهدوني على ألاّ يبرحوا حتى نستأصلَ محمدًا .

ولكن كعبًا تخوَّف من عاقبةِ الغدر ، فمازال حُيَيٌّ يفتله في الذروةِ والغارب ، حتى سقط في الخيانة ، وتبعه قومُه ، فقد كانت أمعاؤهم تتلوَّى بتقلُّصاتِ الحقدِ على المسلمين .

وكشفت المحنةُ عن طبيعةِ المنافقين في الوقتِ العصيب ، فرأينا منهم نماذجَ متنوعة يجمعها التخاذلُ والخوفُ والتردُّد ، و إشاعةُ الأراجيف ، وتركُ المواقع ، وتعويقُ المجاهدين ، وتمنيهم دخولَ الأعداءِ إلى مدينتهم إيثارًا للحياة الذليلة على الموتِ العزيز ، وقد فضحَهم القرآنُ الكريمُ وشنَّع عليهم ، وحذَّر من وجودهِم في المجتمع ، فيقول تعالت كلماته :

﴿ وإذْ يقولُ ٱلْمُنٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللّٰهُ وَرَسُولُهُۥٓ إلاَّ غُرُورًا * وَإذْ قَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إلَّاَ يَسِيرًا * ﴾ « 12 ـ 14 الأحزاب » .

ويقول :

﴿ قَدْ يَعْلَمَ ٱللّٰهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإخْوٰنِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ

يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا *) « 18 ـ 20 الأحزاب » .

القائدُ والجنود

حين انتهى خبرُ خيانةِ اليهودِ إلى الرسولِ و إلى المسلمين، بعث سعدَ بنَ معاذٍ وسعدَ بنَ عبادة ، ومعهما رجلان ، وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا ما بلغنا عن هؤلاء القوم؛ أحقٌّ أم لا ؟ فإن كان حقًا فالحنوا لي لحنًا أعرفه ، ولا تفتُّوا أعضادَ الناس ، و إن كانوا على الوفاءِ فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس ، فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبثِ ما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسولِ الله ، وقالوا : مَنْ محمدٌ ؟ لا عهدَ بيننا وبينه ولا عقد ، فشاتمهم سعدُ بنُ عبادةَ وشاتموه ، فقال له سعدُ بنُ معاذٍ دع عنك مشاتَمَتَهم ، فما بيننا وبينهم أربَى من المشاتمة ، وعاد السعدان ومَنْ معهما إلى رسولِ اللهِ فسلَّموا وقالوا : عضل والقارة ، أي غدْرٌ كغدرِ عضلَ والقارةِ بأصحابِ رسولِ اللهِ فأمر الرسولُ مسلمةَ ابنَ أسلم ، وزيدَ بنَ حارثةَ أن يحرسا المدينةَ في خمسمئةٍ من

المجاهدين ، وبلغ البلاءُ ذروتَه بالمسلمين ، فقواتُ الغزو تضغط في حصارِها للمدينة ، واليهودُ خانوا العهود ، فتحالفوا مع الغزاة ، وشراذمُ المنافقين تنفث سمومَ الخوفِ والتخاذل ، وباتت المدينةُ مهدَّدةً بالسقوط ، ويصف لنا القرآنُ الكريمُ هذا الموقفَ في أبعادِهِ العسكريةِ والنفسيةِ فيقول :

(إِذْ جَآؤُكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا *) « 10 ـ 11 الأحزاب » .

ولكن القائدَ ثبت ثباتَ الجبالِ الراسية ، وسطَ هذه الأخطارِ الماثلة ، ما وَهَنَ وما ضعُفَ وما استكان ، ومن حوله جنودٌ خالط الحقُّ شغَافَ قلوبِهم ، فباعوا للهِ أرواحَهم ، لم تُخِفْهم قواتُ الغزو ، ولم يفتَّ في عضدِهِم خيانةُ الخائنين ، ولا تخاذُلُ المتخاذلين ، ولم ينل من نفوسِهِم الشامخةِ ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مخمصةٌ في سبيلِ الله ، ولم تحجب هذه المخاطرُ عن بصائرهم رؤيةَ الغدِ الظافر ، فصمَّموا على المواجهةِ إلى آخر نبضةٍ في عروقهم ، ويصف القرآنُ الكريمُ موقفَ القائد والجنود أبدعَ وصفٍ وأبلغه ، فيقول :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَومَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا

هٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *) « 21 ـ 23 الأحزاب » .

امـرأةٌ تـقـتـل جـاسـوسًا

وبرز دورُ المرأةِ في المعركة بصورةٍ عملية ، فقد أقامت امرأةٌ مسلمةٌ يقال لها (رفيدة) خيمةً لها بمسجدِ الرسول ، تداوي فيها الجرحى ، ورأت صفيةُ بنتُ عبدِ المطلبِ جاسوسًا يهوديًّا يطوف بأحدِ الحصون ، بعد أن نقضت بنو قريظةَ العهد ، فتبعته بأقدامٍ خفافٍ وقتلته بعمودٍ خشبي .

لا مهادنةَ مع العدو

وأراد الرسولُ أن يُحْدِثَ صَدْعًا في صفوفِ الأحزاب ، فبعث إلى قائديْ غطفانَ ، وعرض عليهما الانسحابَ من الميدان ، لقاء ثلثِ ثمارِ المدينة ، فوافقا ، وكتبوا بذٰلك كتابًا ، ثم أخبر بذلك سعدَ بنَ معاذٍ وسعدَ بنَ عبادة ، وهما سيدا الأوسِ والخزرج ،

فقالا : يا رسولَ الله ، أشيءٌ أمرك اللهُ به لا بد لنا من طاعته ؟ أم أمرٌ تحبُّه فتصنعه أم شيءٌ تصنعُه لنا ؟ قال : **بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيتُ العربَ كالبوكم من كلِّ جانب ، فأردتُ أن أكسرَ عنكم شوكتَهم.**

فقال له سعدُ بنُ معاذ ، وعزةُ الإسلامِ تتدفَّق في كيانه :

يا رسولَ الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القومِ على شركٍ بالله ، وعبادةِ الأصنام ، لا نعبد اللهَ ولا نعرفه ، ولا يطمعون أن يأكلوا منا تمرةً واحدة ، أفحين أكرمنا اللهُ بالإسلامِ وأعزَّنا بكم نعطيهم أموالَنا ؟ مالنا بهذا من حاجة ، واللهِ ما نعطيهم إلا السيفَ حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينهم .

فقال له رسولُ الله : **أنت وذاك** ، ثم تناول سعدٌ الكتابَ فمحا ما فيه ، وقال : **ليجهدوا علينا** ، وبذلك أكدت القاعدةُ الشعبيةُ إصرارَها على المضيِّ في مواجهةِ العدو ، متحملةً أعباءَ الحصارِ بأشكالِهِ العسكريةِ والنفسيةِ والاقتصادية .

تـقـويـضُ الـتـحـالـفِ الآثـم

وفي هذا الظرفِ العصيبِ جاء رجلٌ من غطفان إلى رسولِ الله ، وأخبره أنه أسلم ، ولا يعلم قومُه بإسلامِه ، وطلب إليه أن

يكلِّفَه من العملِ ما يستطيعه ، إسهامًا في دفعِ البلاءِ عن المسلمين ، فقال له الرسول : **إنما أنت رجلٌ واحد ، فخذِّلْ عنا ما استطعت فإن الحربَ خُدعة** ، وكان الرجلُ هو نُعَيمُ بنُ مسعودِ الأشجعي ، وخرج نُعيمٌ حتى أتى بني قريظة ، فقال لهم : يا بني قريظة ، تعرفون ودِّي لكم وخوفي عليكم ، و إني محدِّثكم حديثًا فاكتموه عني ، قالوا : نعم ، قال : لقد رأيتم ما وقع لبني قينُقاع والنضير من إجلائهم ، وأخْذ أموالِهم وديارِهم ، وإن قريشًا وغطفانَ ليسوا مثلكم ، فهم إذا رأوا فرصةً انتهزوها ، و إلا انصرفوا لبلادهم ، وأما أنتم فتساكنون الرجلَ (يريد الرسول ﷺ) ولا طاقةَ لكم بحربِه وحدَكم ، فأرى ألاّ تدخلوا في هذه الحرب ، حتى تستيقنوا من قريشٍ وغطفانَ بأنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادِهم ، وأرى أن تأخذوا منهم سبعينَ شريفًا يكونون رهنًا بأيديكم .

فاستحسنوا رأيَه ، وأجابوه إلى ذٰلك ، ثم توجَّه إلى قريشٍ فاجتمع برؤسائهم ، وقال : أنتم تعرفون ودِّي لكم ، ومحبتي إيّاكم ، و إني محدِّثكم حديثًا فاكتموه عني ، قالوا : نفعل ، فقال لهم : إن بني قريظةَ قد ندموا على ما فعلوه مع محمد ، وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له : أيرضيك أن نأخذَ جمعًا من أشرافِهم ، ونعطيهِم لك ، فرضيَ بذٰلك وها هم

مرسلون إليكم فاحذروهم .

ثم أتى غطفانَ فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشًا ، فأرسل أبو سفيانَ وفدًا لقريظةَ يدعوهم للقتالِ في الغد ، فأجابوا : إنا لا يمكننا أن نقاتلَ في « السبت » ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائنَ منكم ، ثقةً بأنكم لن تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم .

فتحقَّقت قريشٌ وغطفانُ كلامَ نُعيم ابنِ مسعود ، فتصدَّع التحالُفُ الآثم ، وزالت الثقةُ بين أطرافه .

إِنْ تَنْصُرُوا ٱللَّهَ يَنْصُرْكُمْ

وقفت القدرةُ الإلٰهية إلى جانبِ المسلمين في هذه المعركةِ الحاسمةِ مع قوى الباطل ، فسلَّط اللهُ الريحَ على معسكر الوثنية ، تفعل فيه فعلَها الذريع ، حيث اقتلعتِ الخيامَ وأطفأتِ النيرانَ وأكفأتِ القدورَ ، وأثارتِ الذعرَ بين الخيول ، وقذف اللهُ الرعبَ في قلوبِ المعتدين ، فخافوا أن يتفق اليهودُ مع المسلمين ، ويباغتوهم على هذه الحال ، فأجمَعُوا أمرَهَم على الرحيل ، وسمع الرسولُ جلبةً في معسكرِهِم فأرسل من يأتيهِ بالخبر اليقين ، فعاد رسولُه يخبره أن العدوَّ يُعِدُّ العُدَّةَ للرجوع ، وأصبح الصباح ، وقد خلا الميدانُ من جيشِ العدوان ، وكان قد مضى عليه منذ خرج

للقتال حتى رجع زهاءَ الشهرين .

المعركةُ مستمرةٌ

وفي منصرفِ الأحزابِ إلى بلادهم ، أرسل قائدُهم « أبو سفيان » كتابًا إلى النبي يقول فيه : لقد سرتُ إليك بجمعٍ وأنا أريد ألاّ أعودَ حتى أستأصلَكم ، ولك مني يومٌ كيومِ أحد .

فأجابه النبيُّ بكتابٍ جاء فيه :

أما بعد : فقد أتاني كتابُك ، وقديمًا غرَّكَ باللهِ الغَرُور ، أما ما ذكرت أنك سرتَ إلينا ، وأنت لا تريد أن تعودَ حتى تستأصلَنا ، فذلك أمرٌ يحول اللهُ بينك وبينه ، وليأتينَّ عليك يومٌ أكسر فيه اللّاتَ والعُزَّى و إسافًا ونائلةَ وهبل .

وأدرك النبيُّ بفِراسةِ القائدِ العسكريِّ أن رجوعَ الأحزابِ خائبين ، يعني أنهم لن يتجمَّعوا مرةً أخرى في مغامرةٍ عقيمةٍ كهذه المغامرة ، فقال لأصحابه : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، ثم أتبع القولَ العملَ ، فبادر بتصفيةِ الحسابِ مع بني قريظة .

4

مَعرَكَةُ الحُدَيبِيَّة

معركة الحديبية

بسم الله الرحمن الرحيم

* (وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *) « الفتح : 24 ـ 25 »

رأى رسولُ الله ﷺ ـ في منامه ـ أنه دخل هو وأصحابُه المسجدَ الحرامَ ، محلِّقين رؤوسَهم ومقصِّرين .. فعدَّ هذه الرؤيا إلهامًا من اللهِ تعالى ، بالتوجُّه إلى مكةَ ، قصدًا للزيارة .. وكان ذلك في شهر ذي القعدة ، من السنة التاسعةَ عشرةَ للبعثةِ النبويةِ « السادسة للهجرة » وغنيٌّ عن الذكر ، أن الرسول والمهاجرين لم

يدخلوا مكة ، منذ هاجروا منها إلى المدينة[1] ، فإن قريشًا جمعتْ إلى جريمةِ الكفر ، جريمةَ الصدِّ عن المسجدِ الحرام .. وكانت هذه السنواتُ الست ، التي مرت على المسلمين بعد هجرتهم ، بدايةَ مرحلةٍ جديدةٍ في حياة الدعوةِ الخالدة ، فقد صارت لهم قاعدةٌ آمنة ، وشرع الله لهم الجهادَ المسلح ، ردعًا لقريش ، وكلٍّ من يتصدَّى لدعوةِ الله .. وفي هذه السنواتِ وقعت معاركُ مسلحةٌ بين المسلمين وبين قريش ، أبرزُها معركةُ بدرٍ الكبرى .. ومعركةُ أُحُد .. ومعركةُ الخندق .. كما وقعت معاركُ أخرى بينهم وبين الأعراب الذين حالفوا قريشًا ، كبني المصطلق .. أو الذين كانوا يُزْمِعُون مهاجمةَ المسلمين كأعرابِ دومةِ الجندل .. أو الذين غدروا بالدعاة ، كبني لحيان .. أو الذين أغاروا على نعم المسلمين ، كعُيَيْنَةَ بنِ حصنٍ الفزاري .. أو الذين كانوا يهدِّدون أمنَ المسلمين في سيرهم ، كبني سليم .. وفي هذه السنوات أجلى المسلمون عن ديارهم يهودَ بني قينُقَاع .. وبني النضير .. واقتصوا القصاصَ العادلَ من يهود بني قريظة ، أولئك الذين خانوا العهدَ في أحلك الظروف ، وأشدِّها خطرًا على المسلمين ..

ومن نافلة القول : أن نتحدث عن الشوقِ الذي كان يجيشُ في

---

(1) تشير بعضُ الآياتِ القرآنيةِ الخاصةُ بأعمال الحج ، إلى أن بعض المسلمين كانوا يؤدونها قبل صلح الحديبية ، وقد كان هذا البعض من الأنصار دون المهاجرين..

صدر النبي والمؤمنين ، لزيارة بيتِ الله المحرَّم ، وأداءِ مناسكِ الحجِّ والعمرة ، بعد أن شرعها الله تعالى في السنة الخامسة للهجرة ، وحرَّرها من التقاليدِ الفاسدة ، التي أحدثتها الجاهلية .. ولكن الهيمنةَ الوثنيةَ على بيت الله ، حالت دون أدائهم هذه الفريضةَ المقدسة .. واعتزم الرسولُ بعد رؤياه ، أن يتَّجِهَ إلى مكَّةَ معتمِرًا[2] ، فأعلن أصحابَه بذلك ، واستنفر الأعرابَ وأهلَ البوادي ، الذين حول المدينة ، ليخرجوا معه ، فهم كشأن العرب جميعًا ، يشاركون المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه .. وَقَصَدَ الرسولُ من مصاحبتهم ، أن يُشْهِدَهم على موقف قريش ، إذا ما حاولت صدَّه عن المسجدِ الحرام ، ويهدم دعوى قريش ، بأن المسلمين يهدِّدون الأسواقَ التي يقيمها الحجيج في مواسم الحج ، ويستفيد منها الحاضر والبادي ..

وتخلَّف عن الخروج من الأعراب ، قومٌ من غفار .. ومزينة .. وأشجع .. وأسلم .. فقد ظنوا أن قريشًا ستستأصلهم ، ولن يرجعوا إلى المدينة ، واعتلُّوا بانشغالهم بأهلهم وأموالهم .. واجتمع للرسول ألفٌ وأربعمئة ، ساقوا أمامهم الهدْي الذي سوف يذبحونه قربةً لله تعالى .. ولم يكن معهم من السلاح

---

(2) العمرةُ هي الطوافُ بالبيت في غير أوان الحج..

إلا السيوفُ في القرب ، لأن الرسولَ لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة ، وهم معتمرون ..

وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ

وسار النبيُّ ﷺ ، حتى بلغ « ذا الحليفة » فقلَّدَ الهدْيَ وأشْعَرَهُ[3] ، وأحْرَم منها بعمرة ، ثم بعث عتبةَ الخزاعيَّ عيناله ، ليخبرَه عن قريش ، ثم تابع سيره ، حتى إذا كان قريبًا من « عُسْفَانَ » جاءه عتبةُ وأخبره أن قريشًا سمعت بمسيره إليها ، فجمعت جموعَها وأحابيشَها ، تريد مقاتلتَهُ وصدَّه عن البيت .. فرأى الرسولُ أن قتالا جديدًا فُرِضَ عليه ، فقال للمسلمين: **أشيروا عليَّ .. أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوا قريشًا ، فنصيبهم .. فإن قعدوا قعدوا موتورين .. و إن نجوا تكن عنقا قطعها الله .؟ أو ترون أن نؤمَّ البيتَ لا نريد قتالَ أحدٍ ولا حربًا ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه .؟**

فقال أبوبكر: يا رسولَ الله .. إنما جئتَ عامدًا لهذا البيت .. لا تريدُ قتالَ أحدٍ ولا حربًا ، فتوجَّهْ لذلك .. فَمَنْ صدَّنا عنه قاتلناه ..

(3) تقليد الهدْى: يُجْعَلَ في رقاب الإبل شيءٌ كالقلادة ليعلم بذلك أنه هدْىٌ.. والإشعار أن يُشَقَّ جانبُ السنامِ فيسيلُ دمُهُ عليه..

فقال الرسول : **امْضُوا على اسمِ الله** .. ثم تابع قائلاً : **هذا خالدُ بن الوليد بـ « كراع الغميم » في خيلٍ لقريش ، قدمتها طليعةً لها .. فهل من رجلٍ يأخذ بنا على غير طريقهم ..؟**

فقال رجلٌ من أسلم: أنا يا رسولَ الله .. فسار بهم في طريق وعرة ، ثم خرج بهم على مستوى سهل يملك مكةَ من أسفلها ، فقال رسولُ اللّهِ عندئذ للمسلمين:

قولوا نستغفرُ اللّهَ ونتوبُ إليه .. ثم أمرهم أن يسلكوا ذاتَ اليمين في طريق تخرجه على « ثنية المرار » ـ مهبطِ الحديبية ـ من أسفل مكة ..

ولما رأى خالدٌ أن المسلمين خالفوا عن طريقهم ، رجع مع فرسانه إلى قريش ، ليحذرها من زحف القوات الإسلامية نحو مكة ..

وفي « ثنيةِ المرار » بركت ناقةُ رسولِ الله .. فقال الناسُ: خَلَأَتِ القُصْوَاءُ .. « أي بركت وحَرَنَتْ عن المشي »

فقال النبيُّ: **والله ما خَلَأَتْ .. وما ذلك لها بخُلُق .. ولكن حبسها حابسُ الفيلِ عن مكة .. والذي نفسي بيده ، لا تدعوني قريشٌ إلى خطةٍ يعظمون فيها حرماتِ اللهِ ، وفيها صلةُ الرحم ، إلا أعطيتُهم إياها** .. ثم زجَرَ النَّاقَةَ فوثبتْ

حتى بلغت أقصى الحديبية[4] ، فضرب المسلمون معسكرَهم هناك ..

الثباتُ على المبدأ

وعندما « اطمأن المسلمون » جاء إلى الرسول « بُدَيْلُ بْنُ ورقاءَ الخزاعيُّ » في رجال من خزاعةَ ، فقال له : تركتُ « كعبَ ابنَ لؤي » و « عامرَ بنَ لؤي » نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم « العوذُ المطافيلُ » وهم مُقاتلوك ، وصادُّوك عن البيت .. فقال الرسول :

إنا لم نجيء لقتالِ أحد .. ولكنا جئنا معتمرين .. وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم .. فماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني ، كان الذي أرادوا .. وإن أظهرني اللّهُ عليهم دخلوا في الإسلام وافرين .. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة .. فما تظن قريش .؟ فوالله لا أزال أجاهدُ على الذي بعثني اللّهُ به ، حتى يظهرَه اللهُ .. أو تنفردَ هذه السالفة ..

فقال له بُدَيْلُ: سأبلغُ قريشًا ما رأيتُ وما سمعتُ .. ثم انطلق حتى أتى قريشًا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل .. وسمعناه

(4) الحديبية: قريةٌ ليست بكبيرة، بينها وبين مكة أقل من مرحلة، وبعضها من الحِلِّ وبعضها من الحرمِ، ويجوز في لفظها التخفيف والتشديد..

يقول قولاً .. فإن شئتم أن نعرضَهُ عليكم فعلنا ..

فقال سفهاؤهم: لا حاجةَ أن تخبرنا عنه بشيء .. وقال ذوو الأسنان منهم: هاتِ ما سمعتَه .. فقال: إن محمدًا لم يأتِ لقتال .. و إنما جاء زائرًا هذا البيت ..

فاتهمه الطغاةُ بموالاةِ الرسول ، وجبهوه ، وقالوا: أيريد محمدٌ أن يدخل علينا في جنوده معتمِرًا ، فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوةً ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا .؟ واللهِ لا كان هذا أبدًا ، ومنا عَيْنٌ تَطْرُف ..

ويظهر من حديث الوفدِ الخزاعي ، مع كلا الجانبين ، أنه خرج من تلقاء نفسه ، وكانت خزاعةُ موضعَ سرِّ رسول الله ، مسلمُها ومشركُها ، لا تُخْفِي عنه شيئًا كان بمكة ..

تطامن الطغاة

استبدَّ الهلعُ بقريش ، من قوات الثورةِ الإسلاميةِ الرابضةِ على أبواب مكة ، وصورت لها المخاوفُ أن ساعةَ الحساب قد دقَّت ، فأرسلت « مكرزَ بنَ حفص » من بني عامرِ بن لؤي ، ليستطلعَ مقصدَ النبي .. فلما انتهى إلى معسكر المسلمين ، قال له الرسول نحوًا مما قاله لِبُدَيْلٍ وأصحابه .. فرجع إلى قريش ، فأخبرها بما

سمعه ..

وعادت قريش الخائفة ، فبعثت « الحُلَيْسَ بنَ علقمة » سيدَ الأحابيش[5] .. فلما رآه الرسول قال: إن هذا من قومٍ يتألَّهون .. فابعثوا الهدْيَ في وجهه حتى يراه .. فلما رأى الهدْيَ يسيلُ عليه من عرض الوادي في قلائده ، رجَعَ إلى قريش ، ولم يصل إلى رسولِ اللّه إعظامًا لما رأى .. فقصَّ على قريشٍ ما رآه .. فلم تقتنع بقوله ، وقالت له: اجلسْ فإنما أنت أعرابيٌّ لا علمَ لك .. فاستشاط الحُلَيْسُ غضبًا ، وهدَّدها بنقض التحالف معها فقال: يا معشرَ قريش .. ما على هذا حالفناكم .. ولا على هذا عاقدناكم .. أَيُصَدُّ عن بيت اللهِ من جاء معظِّمًا له ..؟ والذي نفسُ الحُلَيْس بيده ، لتخلُّنَّ بين محمدٍ وبين ما جاء له ، أو لأُنْفُرَنَّ بالأحابيش نَفْرَةَ رجلٍ واحد ..

فقالت له قريش مستخذيةً: مه .. كفَّ عنا يا حُلَيْسُ ، حتى نأخذَ لأنفسنا ما نرضى ..

وبذلك تحقَّق مقصدُ النبي ، من الإشهادِ على تعنُّت قريش ، والفصلِ بينها وبين أحلافها وضمِّ العربِ إلى صفوفه ، في مواجهةٍ واحدةٍ لهيمنةِ قريش على البيت الحرام .. وانتدبت قريشٌ « عروةَ

---

(5) الأحابيش: أحياء من القارة، انضموا إلى قريشٍ في حلف واحد..

ابنَ مسعودٍ الثقفيَّ » سيدَ الطائف ، لِيُثْنِيَ الرسولَ عن دخول مكة ، ويخوِّفَهُ عاقبةَ الصِّدام مع قريش .. فجاء عروةُ إلى الرسولِ وقال له: يا محمد .. أَجَمَعْتَ أوباشَ الناس ، ثم جئتَ بهم إلى عشيرتك ، تريد أن تفضَّها بهم .؟ إنها قريشٌ .. خرجت معها العوذُ المطافيلُ[6] .. قد لبسوا جلودَ النمور ، يعاهدون اللّهَ ألاَّ تدخلَها عليهم عنوةً أبدًا .. وأيمُ اللّهِ ، لكأنِّي بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا .. فنال منه أبوبكر ، وقال له: نحن ننكشف عنه؟ وَيْحَكَ .. وكان عروةُ يتكلمُ وهو يَمَسُّ لحيةَ رسولِ الله ، فكان المغيرةُ بنُ شعبةَ يقرَعُ يدَه ..

ورجع عروةُ من حيث أتى .. وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابُه .. لا يتوضأُ وضوءًا إلا كادوا يقتتلون عليه ـ يتمسحون به ـ و إذا تكلموا خفضوا أصواتَهُمْ عندَهُ .. ولا يحدُّون النظرَ إليه .. فقال لقريش: والله يا معشرَ قريش .. لقد جئتُ كسرى في مُلكِه ، وقيصرَ في عظمتِه ، فما رأيتُ مَلِكًا في قومه ، مثلَ محمدٍ وأصحابِه .. ولقد رأيتُ قومًا لا يُسْلِمونه لشيءٍ أبدًا .. فأنظروا رأيَكم .. فإنه عَرَضَ رُشْدًا فاقبَلُوا ما عَرَضَ عليكم .. فإني لكم ناصحٌ .. مع أني أخافُ ألاَّ تُنْصَرُوا عليه ..

---

(6) العُوذُ المطافيل: العُوذُ جمعُ عائذ، وهي الناقةُ إذا وضعت حتى يقوى ولدُها، والمطافيلُ جمع مطفل وهي الناقةُ معها فصيلها، واستُعير ذلك للناس.

فازدادت قريشٌ رعبًا إلى رعبها ، وقالت لعروةَ: لا تتكلَّمْ بهذا أمام الناس .. ولكن نردُّه عامَنَا ويرجع من قابل ..

المحافظة على الغرض

وبعث رسولُ الله من قِبَلِهِ « خِرَاشَ بن أميَّةَ » الخزاعيَّ ، ليذهبَ إلى قريش ، ويؤكدَ لها أن المسلمين ومن معهم من الأعراب ، جاؤوا زوَّارًا لا غزاةً .. ولكن قريشًا عاودها غرورُها ، فعقرتْ جملَه ، وأرادت قتلَه ، فلمْ يمنعه منها سوى الأحابيش ، فرجع الرجلُ إلى الرسول وأنهَىٰ إليه ما حدث ..

ودعا رسولُ الله عُمَرَ بنَ الخطاب ، ليبعثه إلى قريش ، فقال عمرُ: يا رسولَ الله « إني أخاف قريشًا على نفسي .. وليس بمكةَ من يمنعني .. وقد عرفتْ قريشٌ عداوتي لها .. ولكن أدلُّك على رجلٍ أعزَّ بها مني: عثمانَ بنِ عفان .. فدعاه الرسول وطلب إليه أن يلقَى أبا سفيان وسائرَ طغاةِ مكة ، فيخبرهم أنه جاء ، زائرًا لهذا البيت ومعظِّمًا له .. وأمره أن يأتيَ المستضعفين من المؤمنين ، فيشدَّ أزرهم ويبشرَهم بالفرج القريب .. وبعث معه عشرةً من الرجال ..

ودخل عثمانُ مكةَ مستجيرًا بأبانَ بنِ سعيدٍ بنِ العاص ، فبلَّغ

رسالةَ النبيِّ .. فقالت له قريشٌ تحاسنُه: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فطف .. فقال عثمانُ: ما كنتُ لأفعل حتى يطوفَ به رسولُ الله .. وطال مقام عثمانَ في مكة .. وشاع بين المسلمين أنه قُتِلَ .. فقال الرسولُ حين سمع ذلك: لا نبرح حتى نناجزَ القوم ..

قــرار الــمــوت

ودعا الرسولُ الناسَ إلى البيعة على الموت، تحت شجرةٍ هناك[7].. وشاع أمْرُ هذه البيعةِ في قريش، فَتَمَشَّى الرعبُ في أوصالها، فهي تعرف أيَّ طرازٍ من الرجال هؤلاء المؤمنون المجاهدون.. وأرسلت خمسين رجلاً بقيادة «مكرز بن حفص» ليشاغلوا المسلمين، ريثما تخرج لملاقاتهم، فَرَمَوْا عسكرَ المسلمين بالنبال، ولكن قواتِ المسلمين، استطاعت تطويقَهم وأسرهم، فيما خلا قائدَهم الذي أفلح في الهرب..

الـعـدوُّ يـجـنـحُ لـلـسَّـلْـم

ورأت قريشٌ أن من الخير لها أن تسالمَ الرسولَ، فقد صار في

(7) سُمِّيَتْ الشجرةُ بعد البيعة، بشجرة الرِّضوان، وقد أمر عمرُ بنُ الخطاب زمنَ خلافته بقطعها، لما رأى تبرُّكَ الناس بها..

مَنَعَةٍ لا سبيلَ إلى النَّيْل منها، وهي قد جرَّبت معه الحرب فما عادت عليها إلا بأوخم العواقب، وما خرج محمدٌ من حربٍ إلا وهو أشدُّ إصرارًا على معاودة الجهاد.. فأرسلت «سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو» ليفاوضَ الرسولَ على شروط الصلح، و إيقاف الأعمالِ العدوانية بين الطرفين إلى حين.

وجاء سفيرُ المشركين إلى النبي.. فقال له: يا محمدُ.. إن الذي حدث «يريد مهاجمةَ معسكر المسلمين» ليس من رأي عقلائنا.. بل هو شيءٌ قام به سفهاؤنا، فابعث إلينا بمن أسرت..

فقال الرسولُ: لا.. حتى ترسلوا مَنْ عندكم..

وعندئذ أرسلتْ قريشٌ عثمانَ والذين معه، ثم عرض «سُهَيْلٌ» الشروط التي تريدها قريش.. وهي:

1 ـ وضعُ الحرب بين المسلمين وقريش أربعَ سنوات.

2 ـ من جاء المسلمين من قريش يردُّونه.. ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يُلْزَمُونَ بردِّه..

3 ـ أن يرجع النبيُّ من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي العامَ المقبل، فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرجَ منها قريش، فيقيم بها ثلاثًا، ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيفُ في القراب والقوس..

4 ـ من أراد أن يدخلَ في عهدِ محمدٍ من غيرِ قريش، دخل فيه..

ومن أراد أن يدخل في عهدِ قريشٍ دخل فيه..

وقَبِلَ الرسول المؤيَّدُ بالوحي هذه الشروطَ، واخترق بعبقريتهِ السياسيةِ حجبَ الزمن، فرأى أنها ستعود على الدعوة بأبرك الثمرات.. وتجلَّتْ حكمتُهُ البالغةُ في صيغةِ الصلح، فقد دعا عليَّ بنَ أبي طالب، ليكتبَ نصَّ العهد.. فقال له: اكتب: **بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم..**

فاعترض سفيرُ الوثنيةِ قائلا: لا نعرف الرحمٰن الرحيم.. اكتب باسمك اللّهُمَّ.. فقبِل النبيُّ ذلك منه..

ثم مضى في إملاء العهد فقال: يا عليُّ.. اكتب: **هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله**..فاعترض مفوَّضُ الجاهليين على هذه الحقيقة قائلاً: لو نعلم أنك رسولُ اللّهِ ما خالفناك..

فأمر النبيُّ كاتبَه أن يمحوَ ما كتب.. فكره عليٌّ محْوَه، فمحاه النبيُّ بنفسه، مؤكدًا غباءَ الوثنية، إذ إنَّ إثباتَ هذه العبارة، لا يقتضي إيمانَها بمدلولها.. كما أن حذفَها لا يقتضي سلبَ مدلولها منه..

نص وثيقة الصلح

وجاءت وثيقةُ الصلح، بعد تعديلِ مقدِّمتها على النحو التالي:

«باسمك اللّهُمَّ.. هذا ما صالَحَ عليه محمدُ بنُ عبدِ الله، سُهَيْلَ بْنَ عَمْرو.. اصطلحا على وضعِ الحربِ عن الناسِ عشرَ سنينَ.. يأمن فيها الناسُ، ويكفُّ بعضُهم عن بعض.. على أنه مَنْ أتى من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم.. ومن جاء قريشًا مِمَّنْ مع محمد لم يردُّوه إليه.. وأن بيننا عَيْبَةً مكفوفَةً.. وأنه لا إسْلاَلَ ولا إغْلاَلَ[8].. وأنه من أراد أن يدخُلَ في عهدِ محمدٍ دخل فيه، ومن أراد أن يدخلَ في عهدِ قريشٍ دخلَ فيه.. وأنك ترجع عنا عامَكَ هذا، فلا تدخلْ علينا مكةَ، وأنه إذا كان عامَ قابلٍ خرجنا عنك فدخلْتَهَا بأصحابك، فأقمتَ بها ثلاثًا، معك سلاحُ الراكب: السيوفُ في القربِ لا تدخلها بغيرها..».

وكُتِبَ العهدُ من نسختين: نسخةٍ لقريش، ونسخةٍ للمسلمين، وشَهِدَ عليه رجالٌ من كلا طرفَيْ العقد..

البـلاءُ الـمـبـيـن

وداخَلَ المسلمين كربٌ عظيمٌ من هذا الصلح.. فقد خرجوا إلى مكةَ لا يشكُّون في دخولها تحقيقًا لرؤيا نبيِّهم الكريم.. وزاد في كربهم، ما رأوه من تطبيق الرسول لشروط الصلح، ولما يفرغْ من كتابتها.. فقد جاء «أبو جندل بنُ سُهَيْل بن عَمرو» يرسفُ في

(8) الاسلال: السرقةُ، والإغلالُ: الخيانة.

الحديد، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة، وهرب إلى المسلمين هذه المرة ليحموه.. فلما رآه أبوه، وثب إليه، فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه.. ثم قال للرسول: يا محمدُ.. هذا أولُ من أُقاضيك عليه.. أن تردَّهُ إليَّ..

فقال له الرسولُ: **إنا لم نقض الكتابَ بعدُ..**

قال سُهَيْل: فواللهِ لا أصالحك على شيءٍ أبدًا..

فقال الرسول: **أجِزْهُ لي..**

قال ما أنا بمجيره لك..

قال الرسول: **بَلى فافعل..**

قال سهيل: ما أنا بفاعل.. ثم قام يجرُّه ليردَّه إلى قريش..

فصاح أبو جندل: يا معشرَ المسلمين.. أأُرَدُّ إلى المشركين، وقد جئتُ مسلمًا؟ ألا ترون ما لقيت.؟

فقال الرسول: **اصبر واحتسب أبا جندل.. فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعَفِينَ فرجًا ومخرجًا.. إنا عقدنا بين القوم صلحًا، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدًا، و إنا لا نغدر..**

وقد أجاب النبيُّ عن تبرُّم المسلمين بهذا الشرط قائلاً: **إنه من ذهب منا إليهم فأبْعَدَهُ الله.. ومن جاءنا منهم فرَدَدْناه إليهم فسيجعلُ الله له فرجًا..**

وعبَّر عُمَرُ بنُ الخطاب، عن رأي المتبرِّمين بالصلح من المسلمين، فأتى النبيَّ غاضبًا، ودار بينهما الحوار التالي·

عمر: ألستَ نبيَّ اللهِ حقًا.؟

الرسول: بَلى..

عمر: ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل.؟

الرسول: بَلى..

عمر: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار.؟

الرسول: بَلى..

عمر: فَلِمَ نُعْطَى الدنيَّةَ في ديننا.؟

الرسول: **إني رسولُ الله.. ولستُ أعصيه.. وهو ناصري..**

عمر: أولستَ كنتَ تحدثُنَا أنا سنأتي البيتَ فنطوفُ به.؟

الرسول: بَلى.. **أفأخبرتُك أنك تأتيه العام.؟**

عمر: لا...

الرسول: **فإنك آتيه وتطوف به..**

وشرع الرسول في الرجوع إلى المدينة، فأمر أصحابَه أن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا الهدْيَ ليتحلَّلوا من عمرتهم.. فلم يبادروا بالامتثال لما أصابهم من الغم.. فدخل على زوجه «أم سلمة» محزونًا، فقال لها: **هَلَكَ المسلمون.. أمرتُهُم فلم يمتثلوا..**

فقالت: يا رسولَ الله.. حمَّلتَ نفسَك أمرًا عظيمًا في الصلح.. ورجع المسلمون من غير فتح.. فهم لذلك مكروبون.. ولكن اخرُج وابدأهم بما تريد.. فإذا فعلت تبعوك..

عمل الرسولُ بما أشارت به زوجه.. فتقدم إلى هدْيِهِ فنحره.. ثم دعا بالحلاقِ فحلق رأسه.. فلما رآه المسلمون، تواثبوا على الهدْيِ فنحروه وحلقوا..

لقد حسب المسلمون الصلحَ محضَ تسليم، وهم كانوا يتأهبون لاقتحام مكة، و إزالة الهيمنة الوثنية عن الكعبة.. ولكن الرسولَ المؤيَّدَ بالوحي، رأى بثاقب فكره، أن الصدام مع قريش في الشهر الحرام، سيجعل القبائلَ العربية معها في قضيةٍ واحدة، في وجه المسلمين.. وأن الآثارَ التي ستجنيها الدعوةُ، في ظل الأمن، تفوق الآثارَ التي ستجنيها من سفك الدم، وأن من المعارك ما لا يصلح لها إلا السيف، ومنها ما لايصلح لها إلا التدبير..

أبعادُ الحديبية

وقد أثبتت الأحداثُ المتلاحقةُ ـ بعد اتفاقية الحديبية ـ صدقَ رؤية النبيِّ و إلهامه، ونزل القرآنُ الكريم، يؤيِّدُه تأييدًا ساطعًا.. وجنى المسلمون ثمراتِ الصلح عزًّا ومنعةً وهيبةً وانتصارًا، حتى قال عمرُ بنُ الخطاب: قد علمتُ أن رأيَ رسولِ الله أبركُ من رأيي وأبرّ..

وأولُ مغنم ظفرت به الدعوةُ: كفُّ قريش أذاها عن

المستضعَفِين في مكة، واختلاطُها بالمسلمين، مما هيأ للدعوة أن تجتذب إليها قلوبًا كانت عصيَّةً على الإسلام..

كما غَنِمَ المسلمون اعترافَ قريش بهم، كقوة جديدة، لها وزنُها وخطرُها في موازين السياسة في الجزيرة كلِّها، وكانت قبلَ الصلح تعدُّهم عصاةً صابئين عن معتقدات الآباء.. ودخلت قبيلةُ خزاعةَ في عهد النبي، فعزَّ بها جانبُ المسلمين، وكانت خزاعةُ تخشى الدخولَ في حلف المسلمين، في جوِّ الحروب والتوتُّرات القائمة بينهم وبين قريش..

وتفرَّغ النبيُّ بعد الصلح للتبشير بالدعوة، وتأمين مسالِكِها داخلَ الجزيرة، فأخضع القبائلَ التي كانت تستهين بأمرِ المسلمين، وتهدِّدُ أمنَهُمْ كبني مرَّة وغطفان..واتصل بملوكِ الأرضِ وأباطرتِها، يدعوهم إلى الهُدَى والرَّشاد، منذرًا إياهم بعذاب الله إن هم أصموا عن سماع دعوته..

ثم واجه يهودَ «خيبر» فحاصرهم حصارًا عسكريًا مريرًا، واقتحم عليهم حصونَهم المنيعة، وطهَّر أرضَ العرب من هذه الألغام المزروعة في شمالها.. وسقطت بسقوط خيبر جيوبٌ خبيثةٌ أخرى في «فدك» و «تيماء» و «وادي القرى».

وعاد المهاجرون إلى الحبشة، ليشاركوا إخوتهم في حياتهم ومناشطهم، بعد أن شعروا بقوتهم وهيبتهم بين القبائل..

واضطرَّت قريش تحت ضغط الأحداث، أن تطلب إلى النبيِّ إبطال الشرط الثالث من شروط الصلح، وهو التزامُ المسلمين بردِّ من يجيئهم مسلمًا من قريش.. وتفصيل الأمر؛ أن الذين نفروا منها، ولم يقبَلْهم الرسولُ ـ رعايةً للعهد ـ قعدوا على طريق القوافل، يقطعونها على تجارة قريش.. ولم تستطع قريشٌ شكايتَهم إلى الرسول، لأنهم خارجون من ولايته.. فناشدته اللهَ والرحمَ أن يَقْبَلَ من جاءه منها.. وبعد إبطال هذا الشرط، تقاطرَ على المدينة كلٌّ من شرح اللّهُ صدرَه للإسلام..

وَوَفَدَ العربُ على رسول الله من أنحاء الجزيرة يعلنون إسلامَهم، فقد راعهم سمتُ الإسلام، وبهرتهم خلائقُ المسلمين، بل فعل ذلك بعضُ زعماء مكة، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص..

وفي العام التالي: أدَّى الرسولُ عمرةَ القضاء، وأخلى المشركون مكةَ ثلاثةَ أيام، فجاب المسلمون أرجاءها، يعرضون قوَّة التوحيد، ويؤدون شعائرَ الله، ويردِّدون على مسمع الطغاة هتافَ العزة الإسلامية: الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. صدق وعْدَه.. ونصر عبْدَه.. وهزم الأحزابَ وحْدَه..

ولم يمض عامان على صلح الحديبية، حتى كان المسلمون يدخلون مكةَ فاتحين، في عشرة آلافٍ من المجاهدين.. فقد نقضتْ

قريشٌ عهدَ الحديبية، حين اعتدت على حلفاء المسلمين من خزاعة.

القرآن وصلح الحديبية

وفي رجوعه ﷺ، إلى المدينة، نزلت عليه سورة «الفتح» والأكثرون من المفسرين مُجْمِعُون على أن المرادَ بالفتح صلحُ الحديبية.. وتقول السورة في مطلعها:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا *)

ثم تشير السورة إلى بيعة النبيِّ على الموت يوم الحديبية، ومباركة الله لها، والتحذير من نقضها فتقول:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *)

وتذكر السورةُ من تخلَّف من الأعراب عن رسول الله، حين استنفرهم للخروج معه إلى مكة، واعترافهم بإساءتهم، وطلبهم الاستغفارَ من الرسول، وتفضح نفاقَهم وجبنَهم حيث تقول:

(سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا *).

ثم تعلن السورةُ رضاءَ اللَّه تعالى عن المؤمنين الذين بايعوا النبيَّ يومَ الحديبية على الموت، وتثبيته لقلوبهم، بما فاضت به من الطاعةِ للَّه ورسوله، وإثابتهم بفتح خيبر عليهم فتقول:

(لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *).

وتمضي السورةُ الكريمة، فتشير إلى فضلِ اللَّهِ على المؤمنين، بالمحاجزةِ بينهم وبين عدوِّهم بالصلح، معلنةً أنَّ المؤمنين كانوا في موقع القوَّة حين قَبلوا الصلح، وأن حكمةَ اللَّه تعالى قضتْ بالمحاجزة، حتى لا يهلكَ بين الفريقين المتصارعين أناسٌ من المؤمنين بين ظهراني قريش، لا يستطيع المجاهدون تمييزَهم، في غمرات القتال فتقول:

(وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا اَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ اَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا *).

ثم تخبر السورةُ أن رؤيا رسولِ اللَّهِ في دخوله المسجدَ الحرامَ هو وأصحابُه، رؤيا حقٍّ وصدق، وتؤكد أن المسلمين سيدخلونه، محلِّقين رُؤوسَهم ومقصِّرين، آمنين من مفاجآت العدو، وقد تحقَّقتْ هذه الرؤيا في السنة التالية، حيث وقعت عُمْرَةُ القضاء، فكانت معجزةً من معجزات إخبار القرآن عن الغيوب. وفي ذلك يقول الحقُّ تبارك وتعالى:

(لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ اِنْ شَآءَ ٱللَّهُ ءامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *).

وعندما قرأ النبيُّ على الناس سورةَ الفتح، سأله عمرُ بنُ الخطاب: أهو فتحٌ يا رسولَ اللَّه (أي صلحُ الحديبية) فأجاب النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلم: **نعم.. والذي نفسي بيده..**

الصلحُ المفترَي عليه

في 17 ـ 9 ـ 1978 م وقَّعَ الخائنُ المقبورُ «أنورُ السادات» مع

الإرهابي الصِّهيونيِّ «مناحيم بيجن» ما سمى بـ «معاهدة السلام» بين مصرَ والكيانِ الصِّهيوني.. وقد جاءت هذه المعاهدةُ الجائرةُ تجسيدًا لخيانة الأمة العربية والإسلامية، التي بدأها «السادات» بمبادرته الاستسلامية، وما أعقبها من مفاوضات، وتبادل الزيارات بين حكومتي الخائن المهزوم، والعدوِ الصِّهيوني، بتنسيقٍ ورعايةٍ من الولايات المتحدة الإرهابية الأمريكية التي كانت ـ ولا تزال ـ أقوى حليفٍ للعدوِّ الصِّهيوني، وسندًا صريحًا له، في اعتداءاته المتواصلة علينا، وانتهاكاتِه الهستيرية الحاقدة، لمقدساتنا وحضارتنا..

واستخدم الخائنُ الضلِّيلُ كلَّ الأساليب الدنيئة، لإقناعِ الشعبِ المصري بنهجه الاستسلامي، ومن بين هذه الأساليب: استخدامُ الدين، وتزويرُ حقائق التاريخ، توهمًا أن الجماهير ما زالت في عمايةِ الجهل، تخدعها التأويلاتُ الفاسدةُ، والتفسيراتُ المفتعلة..

وقد أمدَّهُ فقهاءُ السلطان بما أراد، فطلعوا علينا بفتوى من فتاواهم الجامحة، زعموا فيها ـ ضمن ما زعموا ـ أن الصلحَ مع العدوِّ الصِّهيونيِّ جائزٌ شرعًا، قياسًا على صلح الحديبية الذي عقده النبي مع المشركين..

والجماهيرُ الإسلاميةُ، لم تستفتِ فقهاءَ السلطةِ في مصر، لأنها

تعلم أنه لا كهنوتَ في الإسلام.. ذلك أن الكهنوتَ شعوذةٌ وتدجيل.. وقديماكان الكهنوتُ المسيحيُّ يبيع صكوكَ الغفران، كما تُباع تذاكر دُورِ الخيالة والمسرح.. والجماهير الإسلامية تعلم مما علَّمَها قرآنُها، أن الدين جاء من أجل تقدُّمها وسعادتها، فمن حقِّها وواجبها أن تقرأ كتابَ ربِّها وسيرةَ نبيِّها، وتستلهمَ العظاتِ والعبر.. ولا يحقُّ لكائنٍ من كان، أن يقرأ نيابةً عنها، أو يفهم نيابةً عنها، لأنها حاضرةٌ لا تغيب، إلى أن يرثَ اللَّهُ الأرضَ ومن عليها..

وقد استنكرت جماهيرُ الأمةِ العربية والإسلامية «معاهدةَ الصلح» المنعقدة في «اصطبل داود» تحت مظلةِ الأخطبوط الأمريكي.. وداست بقدمها فتوى فقهاء السلطة في مصر، إدراكًا لما تنطوي عليه معاهدةُ الاستسلام من جناية على دينها وقوميتها ووجودها ذاته. ولم تكن هذه الفتوى غيرَ فِرْيَةٍ أريد بها تضليلُ الجماهير حسبةً لهوى السلطان وسادته.

ولكن الجماهيرَ الإسلاميةَ لا تجهل أن الصراعَ بين المسلمين والمشركين ـ قبل صلح الحديبية وبعده ـ كان صراعًا عربيًا محضًا، ولم تكن هناك أرضٌ مغصوبةٌ شُرِّدَ منها شعبُها، كما هو الحال اليوم في صراعنا مع العدوِّ الصِّهيوني.. وقد ظل الصراعُ بين المعسكرين: معسكرِ التوحيدِ ومعسكرِ الوثنيةِ، بعد صلحِ الحديبية، إلى أن سقطت دولةُ الأوثان على يد الموحِّدين.. وقد تبيَّن لنا من معركةِ

الحديبية، أن المشركين هم الذين جنحوا للصلح، خوفًا من احتمالات الصدام مع القواتِ الإسلامية، التي بايعت نبيَّها على الموت، عند أبواب مكة، كما تبين لنا أن الصلحَ تَمَّ في جوٍّ يسوده التكافؤُ بين الجانبين، ولم يكن مشوبًا بعيب الإكراه، ولم يتضمن تنازلاً عن شيء ما من سيادة المسلمين، أو تفريطًا ما في أمرٍ من أمور الدين..

وقد رأينا الآثارَ المباركةَ التي ترتبت على صلحِ الحديبية، بالنسبةِ للإسلام والمسلمين، فكيف يجعلُه فقهاءُ السلطان في مصرَ مقياسًا لما حدث في «اصطبل داود»؟.

وماذا حدث في «اصطبل داود»؟.

أحنى الخائنُ المهزومُ ظهرَه.. وطأطأ رقبته، فشدَّ العدوُّ عليها اللجامَ، ثم همزه بعصاه، فمضى يتعثَّرُ في أوحالِ الخيانة.. ووقَّع أبشع صكوكِ العار والتآمرِ والخنوع، فاعترف بأن للكيانِ الصِّهيونيِّ حقًّا في فلسطين العربية، وأنكر الحقوقَ الشرعيةَ للشعب الفلسطيني، وفي مقدمتها حقُّه في العودة إلى وطنه، وبناء دولته بإرادته، وتنكر لتضحياتِ الأمةِ العربيةِ في صراعِها مع عدوِّها الغاصب.. وصادرَ حقَّ الجيش المصريِّ في الهيمنة على ترابه في سيناء.. وشكَّكَ الأمةَ العربيةَ في مقدرتها على مصارعةِ عدوِّها واستخلاصِ حقوقها..

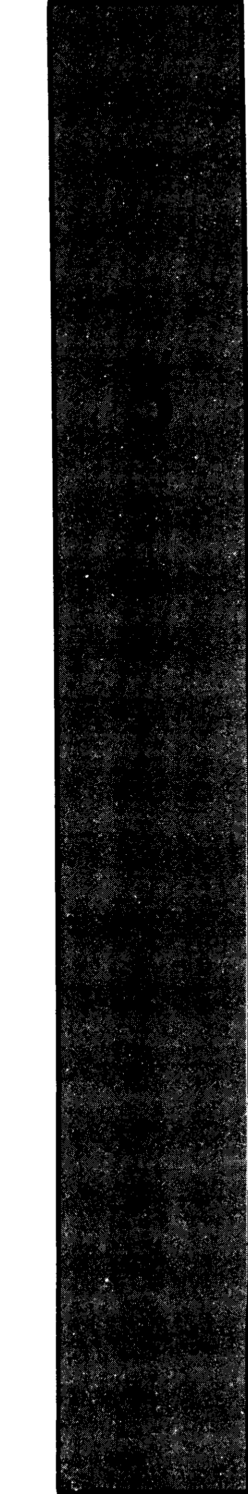
وترتب على الصلحِ الذليل: تطبيعُ العلاقاتِ بين مصر وأعداء اللّه، فارتفعت نجمةُ داودَ فوق مآذنِ الأزهر، وتحوَّلت القاهرةُ إلى عاصمةٍ مقهورةٍ، يسرح فيها الأعداءُ ويمرحون. وتدفَّق رأسُ المال الصِّهيونيُّ والأمريكي، ليباشر نشاطَهُ التخريبيَّ للاقتصاد المصري.. وانتشرت القواعدُ الأمريكيةُ في الأراضي المصرية، وانطلق منها العدوانُ الأمريكيُّ على الأمة العربية، والقارةِ الأفريقية، والثورة الإسلامية في «إيران».

واستحكمت في مصر الأزماتُ الاقتصادية، وغُيِّرْت فيها المناهجُ الدراسية، وحُذِفَتْ من قراءة القرآن الكريم كلُّ الآيات التي تفضحُ سوْءَاتِ اليهود، بحجة إسقاط «الحاجز النفسيِّ» بيننا وبين عدونا..

وفي ظلِّ الصلحِ الأسودِ في «اصطبل داود» أعلن العدوُّ الصِّهيونيُّ، أن القدسَ هي عاصمتُه الموحدة، كما أعلن ضمَّ «الجولان» السورية، إلى كيانه الغاصب، وقام بنسف المفاعل الذريِّ العراقي، ثم اجتاح لبنانَ بأسلحة العدوِّ الصليبيِّ الأمريكي..

إن مؤامرة «اصطبل داود» أكبر من كونها مجردَ اتفاقٍ بين معتدٍ غاصبٍ وخائنٍ مهزوم.. إنها مؤامرة على حضارتنا وكرامتنا ووجودنا ذاته.. وليس هناك وجهٌ للمقارنة بين الفتح الجليل يوم الحديبية،

وبين الصلحِ الذليلِ في «اصطبل داود» ولكن المنافقين لا يفقهون..



سقوط خيبر

سقوط خيبر

يخطيء من يتصوَّر أن يهودَ الحجازِ كانوا عربًا .. إذ لو كانوا كذلك ما حقدوا على العربِ هذا الحقدَ الأسود .. وما أمضَّهم أن يكونَ خاتَمُ الأنبياءِ عربيًّا ، فيقفون منه موقفَ الكيدِ والائتمارِ به .. لقد رأينا أعدى أعداءِ الرسولِ من المشركين يدخلون في دينِ اللّهِ طائعين ، ويحملون رسالَته إلى العالمين ، ولم نر اليهودَ دخلوا الإسلامَ إلا بقصدِ تقويضِهِ من داخله ، كمثل عبدِ اللهِ بنِ سبأ ، وكعبِ الأحبار ، ووهبِ بن منبه ، فقد ألبسوا على المسلمين دينَهم ، وفسَّروا القرآنَ تفسيرًا توراتيًا ، وكذبوا على رسولِ اللّه ، فوضعوا الأحاديثَ المكذوبةَ ، ونسبوها إليه زورًا .. ويحدثنا التاريخ أن يهودَ الحجاز كانوا يترقَّبون نبيًّا من بينهم ، يقودُهم إلى الغزو ، وأسرِ الشعوب ، وأكلِ أموالِها ، والتآمر عليها ـ طبقًا لمفهومِهِم عن النبوَّة والأنبياء ، فلما بُعِثَ النبيُّ العربي ، يُحلُّ الطيِّباتِ ويحرِّم الخبائثَ ، ويضعُ عن المظلومين أغلالَهم ، ويقود

الإنسانيةَ إلى طريقِ ربِّها ، أكل الحقدُ صدورَ اليهود ، وتربَّصوا به وبدعوتِهِ الدوائر ، فصالحوه على دَخَلٍ ، ولم يدَعُوا فرصةً للنيلِ منه إلاَّ اهتبلوها ، ثم كشفوا عن طبيعتِهِم العدائية ، فتآمروا مع المشركين على اجتثاثِ المسلمين ، وحاولوا قتلَ النبيِّ كما فعلوا مع أنبيائهم ، وعبثًا حاول النبيُّ هدايتَهم أو تحييدَهم ، فلم يَعُدْ في قوسِ الصبرِ منزع ، وكان لا بدَّ من مناجزتِهم و إخراجِهم من أرض العرب .. ولو كانَ اليهودُ عربًا مَا أجلاهم الرسول عن أرضهم ، بل ما كان بوسعه أن يجليَهم .. فالعربُ هم مادةُ الإسلام ، وفيهم بُعِثَ عليه السلام ، وهم أولُ من خوطبوا بحملِ التكاليفِ الإلٰهيةِ وهدايةِ البشرية . وبلسانهم تكلَّمتِ السماءُ .. و إنما كان يهودُ الحجازِ شراذمَ فرَّتْ من وجهِ الرومان ، ووجدت بينَ العربِ الأمنَ والدِّعةَ .. ولم تلبث هذه الشراذمُ أن قلبت للعربِ ظهرَ المجن ، فأقامت في أرضِهم المستعمراتِ والقرى المحصَّنة ، وراحت تنشر طاعونَها الفتاك ، ولم يستطع العربُ أن يكنسوا الطاعونَ من بلادِهم إلا حينَ أشرقت عليهم شمسُ الإسلام ، فكان حصارُ بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة .. ثم جاء دور « خيبر » العاتية .. وهي مستعمرةٌ كبيرة تبعد عن المدينةِ بنحو مئة ميلٍ إلى الشمالِ الغربي .. وكان مستوطنوها اليهودُ يتابعون أنباءَ الصراعِ المسلَّحِ بين الرسولِ وبين اليهودِ بأنفاسٍ محبوسة ، ولا يستطيعون

أن يمدُّوا لهم يدًا ، فلما اجتثَّ الرسولُ شأفةَ الخونة ، بات يهودُ خيبرَ يترقَّبون الصدامَ القادمَ بينهم وبين المسلمين .. وكان لأهلِ خيبرَ مع الدعوةِ الإسلامية صفحةٌ ملطخةٌ بالسواد ، فهم قد احتضنوا المدحورين من يهودِ بني النضير ، وفي مقدمتهم « سلامُ ابنُ أبي الحقيق » وكان المحرِّكَ لأهلِ خيبرَ على حرب المسلمين ، وهو الذي قاد وفديْ يهودِ بني النضيرِ وخيبرَ لتحريضِ قريشٍ وغطفانَ على غزوِ المدينة .. وقد انتدب له الرسولُ من يقتله ، فخرج إليه خمسةٌ من جنودِ الخزرج ، وصرعوه في حصنِهِ بخيبر .

وتأمَّر على يهودِ خيبرَ أحدُ شياطينهم المسمَّى « أسيرَ بنَ رزام » فأرسل النبيُّ من يستعلم خبره ، فجاءته الأخبارُ بأنه قال لقومه : سأصنع بمحمدٍ ما لم يصنعه أحدٌ قبلي .. أسير إلى غطفانَ فأجمعهم لحربه ..

وقد حاول رسولُ الله أن يوقفَه على حدودِ الحياد ، فأرسل إليه وفدًا يفاوضه على أن يترك ما عزم عليه من الحرب ، ويقدمَ على رسول الله ، فيولِّيَهُ الرسولُ على « خيبرَ » ويعيش أهلُها بسلام .. وتظاهر عدوُّ اللهِ بالموافقة ، ثم حاول أن يغدرَ بالوفد ، فذهب ضحيةَ غدره ..

وحين خرج الرسولُ الى مكةَ معتمرًا في السنة التاسعةَ عشرةَ للبعثة (في غزوة الحديبية) انتهز يهودُ خيبرَ فرصةَ غيابِهِ مع كبارِ

الصحابة ، فأرادوا ان يغزوا المدينةَ ليأخذوا عيالَه وعيالَ أصحابه ، والى هذا الموقف يشير بعض المفسرين ، عند قوله تعالى : (**وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ** ...) .

كما دخل يهودُ خيبرَ في حلفٍ مع قبيلةِ « غطفانَ » لمعاونتهم عندما يتهدَّدُهم خطرُ المسلمين .. وكان النبيُّ القائدُ يدرك تمامًا أن خيبرَ أصبحت البؤرةَ الطاعونيةَ الباقيةَ في الحجاز .. وأن الصراعَ معها يختلف عن الصراعِ مع بني قَيْنُقَاع وبني النضير وبني قُرَيْظَةَ ، وذلك لموقعها البعيدِ عن المدينة ، ولمناعة حصونها ، وفعاليةِ أسلحتِها ، فكان يترقَّب الظروفَ المواتيةَ للزحف عليها .. وكان « صلحُ الحديبية » يهدف ضمن ما يهدُف إليه ، إلى تحييدِ قريشٍ في الصراع القادمِ مع « خيبرَ » ثم يستكمل تحشيدَ قوةِ المسلمين ، استعدادًا للمعركة الحاسمةِ مع قريش .. وسَيَّرَ اللّهُ الأحداث على وَفْقِ ما قدَّر النبي .. فلم يمض شهرٌ على عودتِهِ من « الحديبية » حتى تحرَّك بأصحابِهِ إلى موضعٍ يقال له « الرجيعُ » بين خيبرَ وغطفان .. وكان هدفُه أن يحولَ بين غطفانَ وبين معاونةِ يهودِ خيبر .. وقد ظن أهلُ غطفانَ أن الرسولَ متَّجهٌ إلى خيبرَ بجيشه ، فاتجهوا صوبَ خيبر لمعاونةِ حلفائهم .. ولكن الرسولَ بعث سريةً من جنده لمفاجأةِ ديارِ غطفان .. فلما علمت غطفانُ بالأمر ،

أسرعت بالعودةِ إلى ديارِها لحمايتها ، فما كان من الرسولِ إلا أن اتَّجه بجيشِ الإسلامِ نحو خيبرَ العاتية .. وكان الوقت ليلاً ..

الحصار الكبير

وكان الرسولُ إذا غزا قومًا ينتظر الصباح ، فإن سمع أذانًا كفَّ عنهم ، وان لم يسمع أذانًا أغار عليهم .. ومعنى ذلك : أن منتهى غايةِ الرسول ، أن يسمع كلمةَ الحقِّ تجلجل في الآفاق ، تخشع لها قلوبُ المؤمنين ، وتتطامن لها أعناقُ المتجبِّرين ، ولم تكن غزواتُه المباركةُ الا تأمينًا لكلمةِ الحق ، و إزالة ما عساه أن يعترضَ طريقَها .. ولم يسمع الرسولُ في « خيبرَ » أذانًا ، وأنَّى لكلمةِ الحقِّ أن تعلوَ بين طائفةٍ عَرفتِ الحقَّ فجحدتْهُ ، وحرَّفَتْ كلامَ اللّهِ عن مواضِعِه ، وكذَّبتْ دعاةَ الحقِّ وقتلتهم؟ .

وما أصبح الصباح ، حتى كانت القواتُ الإسلاميةُ تطوِّق خيبرَ من كلِّ جانب .. وخرج فلاحو اليهودِ إلى حقولهم بمكاتِلِهم وفؤوسِهِم ومساحيهم ، فلما رأوا المدينةَ محاصرةً صاحوا فزعين : محمد والخميس .. وولُّوا الأدبارَ هاربين ، فصاح النبيُّ و إشراقاتُ النصر تتهلّل في أسار يره قائلاً :(**اللّهُ أكبرُ .. هلكتْ خيبرُ .. إنا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذَرِين**).

وكانت حصونُ « خيبرَ » ثلاثَ مجموعات ، منفصلاً بعضُها عن بعض .. وهي حصونُ النطاة .. وحصونُ الكتيبة .. وحصونُ الشقّ .. وتتألَّف المجموعةُ الأولى من ثلاثةِ حصونٍ هي : حصنُ ناعم ، وحصنُ الصعب ، وحصنُ قلة .. وتتألَّف المجموعةُ الثانيةُ من حصنين هما : حصنُ أُبَيٍّ وحصنُ البريء .. أما المجموعةُ الثالثةُ فتتألَّف من ثلاثةِ حصونٍ : حصن القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن السلالم .

يـا مـنـصـور أمـت .. أمـت

وبدأ عليه السلامُ بمجموعةِ حصونِ النَّطاة ، فعسكر المسلمون شرقيَّها ، بعيدًا عن مدى النبال .. وأمر بأن يُقْطَعَ نخلُهم ، ليحملَهم على الاستسلام ، فقطع المسلمون نحوًا من اربعمئة نخلة .. ثم ابتدأ القتال مع حصن « ناعم » بالمراماة ، وصار الرسولُ يغدو كلَّ يومٍ مع بعضِ الجيشِ للمناوشة ، ويخلف على العسكرِ أحدُ المسلمين ، حتى إذا كانوا في الليلةِ السابعةِ ، ظفر حارسُ الجيشِ « عمرُ بنُ الخطاب » بيهوديٍّ خارجٍ في جوفِ الليل ، فأتى به الرسولَ ، قال اليهوديُّ : إن أمَّنتموني أدلُّكم على أمرٍ فيه نجاحُكم .. فقال له الرسول : دُلَّنا .. فقال اليهوديُّ : إن

أهلَ هذا الحصنِ أدركهم المَلَلُ والتعب ، وقد تركتُهم يبعثون بأولادِهم إلى حصنِ « الشق » .. وسيخرجون غدًا لقتالِكم .. فإذا فُتِحَ عليكم هذا الحصنُ فإني أدلُّكم على بيتٍ فيه منجنيقٌ ودباباتٌ ودروعٌ وسيوف ، يسهل عليكم بها فتحُ بقيةِ الحصون ، فإنكم تنصبون المنجنيقَ ، ويدخل الرجالُ تحتَ الدبابات ، فينقبون الحصنَ فتفتحه من يومك ..

فلما كان الغدُ أعطى الرسولُ الرايةَ لعليِّ بنِ أبي طالب ، فخرج يهوديٌّ يطلب المبارزة ، فقتله علي ، ثم خرج « مرحب » وكان أشجَعَ اليهود ، فأرداه عليٌّ قتيلاً .. فخرج أخوه « ياسر » فقتله « الزبيرُ بنُ العوَّام » ثم حمل المسلمون على اليهود ، حتى كشفوهم عن مواقعهم ، وتبعوهم حتى دخلوا الحصنَ عنوةً .. وانهزم اليهودُ إلى الحصنِ الذي يليه ، وهو حصن « الصعب » فتبعهم المسلمون حتى اقتحموه .. وفرَّ المنهزمون إلى حصنِ « قلة » فلحقهم المسلمون ، وحاصروهم ثلاثةَ أيام ، وفي اليوم الرابعِ دلَّهم يهوديٌّ على جداولِ الماءِ التي يستقي منها اليهود ، فمنعوها عنهم ، فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديدًا ، انتهى بهزيمتهم إلى حصون « الشق » فتبعهم المسلمون ، وبدؤوا بحصن « أُبَيّ » وتمكن أبو دجانةَ الأنصاريُّ من دخولِ الحصنِ عنوةً .. فهرب المهزومون إلى حصن « البريء » فتمنَّعوا به ، وكان أهلُ هذا الحصنِ أشدَّ اليهود

رميًا بالنبالِ والحجارة .. فنصب المسلمون عليه المنجنيق ، فدبَّ الرعبُ في أوصالِ اليهود ، ولاذوا بالفرارِ لا يلوون على شيء ..

وتتبع المسلمون بقايا العدوِّ الى مجموعةِ حصونِ « الكتيبة » وبدؤوا بحصن « القموص » فحاصروه عشرين ليلةً ، ثم فتحه اللّهُ على يد عليٍّ بنِ أبي طالب ..

ثم زحفت قواتُ المسلمين لمحاصرةِ حصنيْ « الوطيح والسلالم » فلم يقاوم اليهود ، بل استسلموا صاغرين ، وطلبوا حقنَ دمائهم ، على أن يخرجوا من « خيبرَ » بذراريهم ، لا يصطحب الواحدُ منهم إلا ثوبًا واحدًا على ظهره .. فأجابهم الرسولُ إلى ذلك ..

وقد غنَّمَ المسلمونَ من هـذين الحصنين مئةَ درع ، وأربعَمئةِ سيف ، وألفَ رمح ، وخمسمئة قوسٍ عربية ، كما غنَّموا كثيرًا من الأقراطِ والخواتمِ والذهبِ وعقودِ الجواهرِ والزمرُّدِ وغيرَ ذلك .. وكان شعارهم في القتال : يا منصورُ أمت أمت ..

المرأةُ في الميدان

وتجلَّى في هذه الغزوةِ دورُ المرأةِ المسلمةِ كأروع ما يكون التجلِّي ، ونالت إعجابَ القائدِ وتقديرَه ، وتحكي لنا هذا الدورَ

امرأةٌ مجاهدة ، هي أميةُ بنتُ قيسٍ الغفاريةِ فتقول :

أتيت رسولَ الله ﷺ في نسوةٍ من بني غفار .. فقلنا : يا رسولَ الله ، قد أردنا الخروجَ معك الى خيبر ، فنداوي الجرحى .. ونعين المسلمين بما استطعنا .. فقال : **على بركة الله** .. ولما فتح اللّه خيبرَ ، أعطاني الرسولُ قلادة ، وعلَّقها بيدِه في عنقي.

وتذكر كتبُ السيرة ، أن هذه القلادةَ ظلَّت تزينُ صدرَ أميةَ طولَ حياتها .. ولما ماتت دُفِنَتْ معها عملاً بوصيتها .. وهي تشبه الأوسمةَ الحربية في عصرنا الحديث .. وقد نالتها أميةُ جزاءَ بلائها الحسنِ في الجهاد ..

الـرسـولُ الـشـهـيـد

كأن الله تعالى خلق اليهودَ يومَ خلقَ الأفاعي ، يلين ملمسُها ، وتختزن السمَّ في أنيابها ، وتحتال للصيدِ احتيالاً عجيبًا ، كتلك الحيةِ التي تغمس ذنبَهَا في الرمال ، وتنتصب كأنها رمحٌ مركوزٌ ، فيجيء الطائرُ فيرى عمودًا قائمًا ، ويقع على رأس الحية ، فتقبض عليه ، فإن كان طائرًا لا يشبعها ابتلعته وبقيتْ على انتصابها ، و إن كان يشبعها أكلته وانصرفت .

وهم كالحيات .. تسبت في أيام الشتاء ، حتى تحسبها ميتةً ، ولكنها تدبُّ على الأرضِ إذا انقضى الشتاء ، فبعد أن هُزِمَتْ إرادتُهم في ميدانِ القتال ، وطلبوا من الرسول ان يخرجوا أذلاَّءَ من خيبر ، عادوا يسألونه في خنوعٍ أن يبقيَهم على الأرض يزرعونها ، على أن للمسلمين شطرَ الثمرات .. وقد أجابهم الرسولُ قائلاً : نقرُّكم على أن نجليَكم وقتما نشاء .. وقد أمْلَتْ هذا التصرُّفَ من جانبِ الرسولِ مصلحةُ المسلمين العليا ، فقد خشي أن تتسلَّل الأفاعي في الدولةِ الجديدة ، كما أراد أن يشعرَهم بخضوعِهِم لإرادةِ المسلمين أصحابِ الأرض الحقيقيين .

وفي أثناء مُقامِهِ ﷺ بخيبر ، أهدت إليه إحدى اليهوديات كُراعَ شاةٍ مسمومة ، فأخذ منها مضغةً ثم لفظها .. وأكل منها بشرُ ابنُ البراء فمات لوقته .. واحتجم الرسولُ ، وجيء بالمرأةِ التي حاولت قتلَه ، فسألها عن سبب فعلتِها ، فقالت : قلتُ إن كان نبيًّا لن يضرَّه .. و إن كان ملكًا أراحنا من شرِّه ..

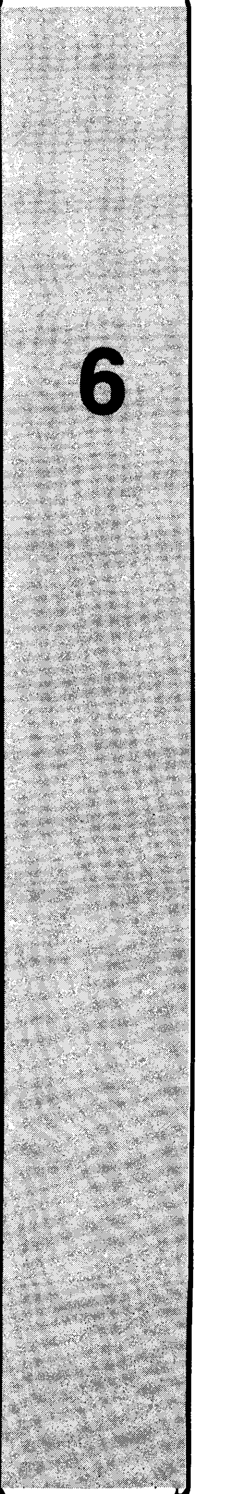
وقد ظل الرسولُ يعاني من أثرِ السمِّ حتى توفَّاه اللهُ تعالى .. فحين كان في مرضه الأخير ، دخلت عليه أختُ « بشرِ بنِ البراء » فقال لها : إن الأكلةَ التي أكلتُها مع أخيكِ في خيبرَ تعاودني .. وهذا أوانُ انقطاعِ أبهري (الأبهرُ : عرقٌ من عرقين يخرجان من القلب ، ومنهما تتشعَّب الشرايينُ كلُّها) وكان المسلمون يرون أن

رسولَ اللهِ ماتَ شهيدًا ، مع ما أكرمه اللّٰهُ تعالى به من النبوَّة ..
ويقول ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه : لَأَنْ أحلفَ باللهِ أنَّ رسولَ اللهِ
قُتِلَ قتلاً أحبُّ إليَّ من أن أقولَ إنه مات موتًا .. وذلك أن اللهَ
اتخذه نبيًّا وشهيدًا .. ولم تكن هذه المحاولةُ اليهوديةُ لقتلِ الرسولِ
هي المحاولةَ الأولى .. فقد سبقتْها محاولاتٌ عديدة ، حين همُّوا
بقتله في ديارِ بني النضير ، وحين حرَّضوا عليه قريشًا وغطفانَ في
غزوةِ الأحزاب ، وحين تحالفت بنو قُريظةَ مع قريشٍ في هذه
الغزوة ، ولكنَّ اللهَ تعالى عصمَ نبيَّه ، لأن الرسالةَ التي جاء بها لم
تكن قد استوفتْ بعدُ جملةَ الحقائقِ التي تدثَّرت بين أعطافِها ..

أحقادُ خيبرَ باقية

وفي عهدِ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب أجلى العربُ اليهودَ نهائيًا
من خيبر .. وتطهَّرت أرضُ الإسلامِ من طاعونٍ ماحق .. ولكن
أبناءَ الأفاعي استطاعوا بتحالفهم مع العدوِّ الصليبيِّ أن يقبضوا على
عنقِ الطريقِ إلى المدينةِ ومكة ، وأن يجدوا عونًا لهم على احتلالِ
المنابعِ الروحيةِ والنفطيةِ ، بدعوى أن أجدادَهم كانوا يسكنون
الحجاز ، وأن إبراهيمَ بني الكعبة ، وهم كما يزعمون أبناءُ
إبراهيم .. فهل يفيق العرب والمسلمون من سكرتهم؟ أم هل يظلون

غائبين عن وعيهم حتى يجتاحَهم الطاعونُ اليهودي ؟ ولسنا نلقي الكلام على عواهِنِه ، فعندما احتل اليهودُ القدس يوم 6 من يونيو 1967 م قال المجرم الصِّهيونيُّ « ديان » : الآن أصبح الطريقُ مفتوحًا أمامنا إلى المدينةِ ومكة ..



ذكرى يوم مؤتة

« جمادى الأولى من السنة
الحادية والعشرين للبعثة »

ذكرى يوم مؤتة

« جمادى الأولى من السنة الحادية والعشرين للبعثة »

بعد أن عقد النبيُّ ﷺ صلحَ الحديبيةِ مع قريش ، وجد الفرصةَ مواتيةً ليمدَّ ظلالَ الدعوةِ خارجَ الجزيرةِ العربية .. تحقيقًا لقولِ اللهِ تعالت كلماتُه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ « الصف : 9 » فبعث بكتبِهِ ورسُلِه ، إلى سائرِ أنحاءِ العالَمِ القديم ، المعروف في أيامه ، داعيًا رؤساءَ الأممِ المختلفةِ إلى دينِهِ القويم ، مؤكِّدًا في ذاتِ الوقتِ أن الدعوةَ الإسلاميةَ ليست دعوةً إقليميةً أو دعوةً عرقية ، وإنما هي دعوةٌ عالميةٌ حملها العربُ بإذن ربِّهم إلى الناس كافةً .. وكان عاملُ « هرقل » على مدينةِ « بصرى » أحدَ الذين بعث إليهم برسولِهِ وكتابِه ، وقبل أن يبلغ الرسولُ (وهو الحارثُ بنُ عُمَيْر الأزديُّ) « بصري » تعرض له « شرحبيل بنُ عمرو الغسّانيُّ » فقال له : أيْن تُريدُ .. ؟ قال : الشام .. قال شرحبيل : لعلك

من رُسُلِ محمد .. قال الرسول : أجل .. فأمر به شرحبيل فضُربتْ عنقُه .. ولم يُقْتَلْ للنبيِّ رسولٌ غيره .. وتقول كتبُ السيرة : إن النبي ﷺ حزنَ عليه حزنًا بالغًا .

كان ذلك في السنة التاسعةَ عشرةَ للبعثة المحمدية .. ولم يكن للنبيِّ القائد أن يسكتَ على هذا العدوان ، فرسولُه لم يرتكب إثمًا ، و إنما كان يحمل كتابًا ، ليلقيَه بين يدي مَنْ أُرسِلَ إليه ، فإما أن يأخذَ بما فيه أو يدعَه ..

وكان على النبيِّ ﷺ أن يوطِّدَ أركانَ الأمن في شمال المدينة ، فقضى على الجيوب اليهوديةِ في خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى ، ثم جاء وقتُ القصاصِ ممن قتلوا رسولَه « الحارثَ بنَ عمير الأزديَّ » ومن أمير بصرى الذي سكت عن مقتله فلم يُعِرْهُ اهتمامًا ..

وفي شهر جمادي الأولى من السنة الحادية والعشرين للبعثة ، جهز الرسولُ جيشًا قوامُهُ ثلاثة آلافِ مجاهد .. وأَمَّر عليهم « زيدَ ابنَ حارثةَ » وقال لهم : **إن قتل فالأمير جعفرُ بنُ أبي طالب ، فإن قتل جعفرُ فأميرُكم عبدُ اللّه بنُ رواحة .. فإن قتل فاختاروا رجلاً من بينكم تجعلونه أميرًا عليكم .**

ثم عقد لهم اللواء ، ودفعه إلى زيد ، وأوصى المجاهدين أن يغزوا باسم اللّهِ من كفرَ باللّهِ وألاَّ يغدُرُوا ولا يغُلُّوا .. وألاَّ يقتلوا وليدًا ولا امرأةً ، ولا شيخًا فانيًا ولا

منعزلاً في صومعةٍ .. ولا يهدموا بناء .. وتلك هي آدابُ الحربِ الإسلامية ، التي لم يعرفها المعتدون حتى اليوم..

وبدأ الجيشُ يتحرك إلى وجهتِهِ المحدَّدة ، وودَّعه المسلمون داعين اللهَ أن يدفع عنه ، وأن يردَّه غانمًا ..

وكان العدوُّ قد تسامع بمسيرِ الجيشِ نحوه ، فقام شرحبيلُ بنُ عمرو ـ الذي قتل الحارثَ ـ فجمع أكثرَ من مئةِ ألف ، وقدَّم الطلائعَ أمامه .. ولم يزل المسلمون سائرين حتى نزلوا « معان » فبلغهم خروجُ العدو ، فأقاموا بمعان ليلتين .. وتشاور الجنودُ فيما يفعلونه : أيكتبون للرسولِ يطلبون منه المدَد ؟ أم يُقْدِمون على الحرب ؟ وفي خلال المشاورةِ صاح عبدُ الله بنُ رواحةَ في صوت العقيدة يقول : يا قوم .. إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له تطلبون : الشهادة .. ونحن واللهِ ما نقاتل بقوةٍ ولا بكثرة ، إنما نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا اللهُ به .. فإنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن : النصر أو الشهادة .. وألهب الحسُّ الدينيُّ مشاعرَ الجنود ، فانطلقوا وفي سواعِدِهم صلابةُ الصخور ، وفي عزماتهم حرارةُ الحديد المصهور ..

واختاروا قريةَ « مؤتة » ـ على مشارفِ الشام ـ لتكونَ ميدانَ الصدام .. وكان هرقلُ قد نزل بأرضِ البلقاء ـ على حدِّ ما ذهبت

إليه بعض الروايات ـ في مئةِ ألفِ من الرومِ ، معِ من انضم إليه من جيش شرحبيلَ بنِ عمرو ، والتقت الفئةُ المؤمنةُ بهذه الجموعِ الكثيفة .. فقاتل زيدُ بنُ حارثةَ وقاتل معه المسلمون حتى قُتِلَ طعنًا بالرماح .. ثم أخذ اللواءَ جعفرُ بنُ أبي طالب ، فقاتل به حتى قُطعتْ يمينُه ، فاحتمله بيساره ، فلما قُطعتْ هي الأخرى ، احتمله بين عضُدَيه ، وقاتل حتى قُتِلَ رضوانُ اللهِ عليه ، فوُجِدَ به بضعٌ وتسعون جرحًا ، ما بين ضربةٍ وطعنة ، ليس فيها شيءٌ في ظهرِه ، فالمؤمنُ يموت في المعامعِ ولا يعرف الفرار .. وقرأتُ في بعض الرواياتِ ، أن جسده كان مقسومًا نصفين ، وكان رضيَ اللهُ عنه قد لَقِيَ ربَّه صائمًا ..

ثم أخذ اللواءَ بعدَه عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ ، فاندفع به في غمراتِ الهولِ وهو يقول مخاطبًا نفسه :

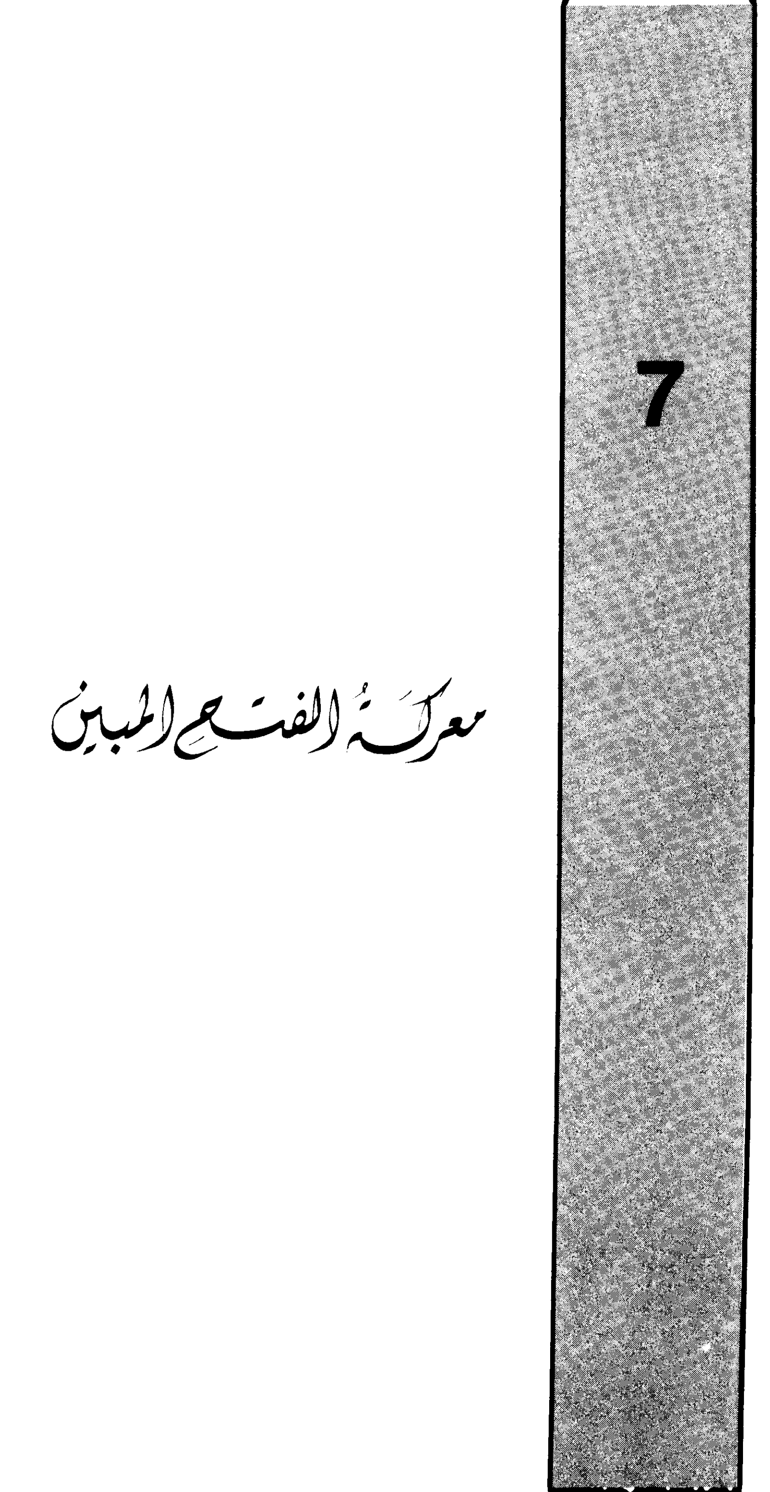
أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّه
طائعةً أو لتكرهنَّه
إن أجلَبَ الناسُ وشدُّوا الرنة
مالي أراكِ تكرهين الجنَّة
قد طالما قد كنتِ مطمئنَّة
هل أنتِ إلا نطفةٌ في شنَّة

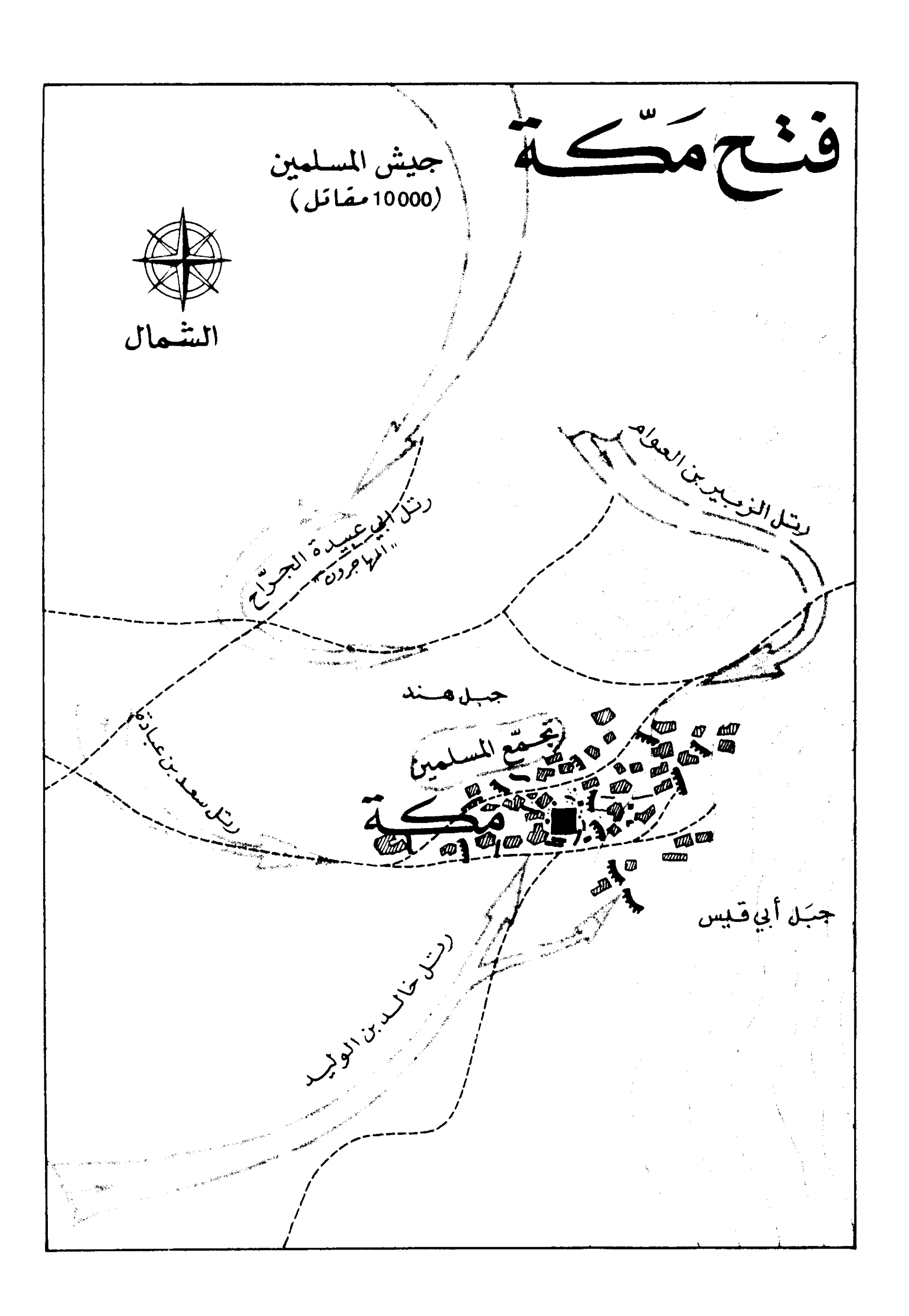
ونزل عن فرسه ، وكأنه يتحدَّى الموتَ نفسَه ، وجاءه ابنُ عمٍّ

له بعرقٍ من لحم ، فقال له : شُدَّ بهذا صُلبَكَ فإنك لم تأكل منذ ثلاثةِ أيام ، فأخذه من يدِه ، وما كاد ينهش منه نهشةً حتى سمع صليلَ السيوفِ فرماه ، ولم يزل يقاتلُ حتى قُتِلَ رحمةُ اللهِ عليه ..
واصطلح المجاهدون على « خالدِ بنِ الوليدِ » ليكون أميرَهم ، فقاتل رضيَ اللهُ عنه ، حتى تكسَّرت في يده تسعةُ أسياف ، ولكنه نظر بثاقبِ فكرِه العسكري ، فرأى أن استمرارَ الحربِ في ظروفٍ غيرِ متكافئة ، سيؤدِّي إلى استنزافِ المسلمين دون مقابل ، فقرَّر أن ينسحبَ بالجيش فعمدَ إلى مخالفةِ ترتيبِ العسكر ، حيث جعلَ الساقةَ مقدمةً ، والمقدمةَ ساقةً ، والميمنةَ ميسرةً والميسرةَ ميمنةً ، فظنَّ الرومُ أن المدَدَ جاء للمسلمين فرعبوا ، ثم استفادَ خالدٌ من حلولِ الظلامِ ورجع بالجيشِ إلى الخلف ، حتى انحاز إلى مكان آمِنٍ، ومكث يناوش العدوَّ سبعةَ أيامٍ ، تَحَاجَزَ بعدها الفريقان ، لأنَّ العدوَّ ظنّ أن الأمدادَ تتوالى على المسلمين ، وخاف أن يجرَّه المسلمون إلى وسطِ الصحارى ، وبذلك انقطع القتالُ ..
وَأَطْلَعَ اللهُ نبيَّه على خبرِ الجيش ، قبل أن يعودَ إلى المدينة ، حيث رفع له الأرضَ ، فرأى المعترك ، فصعدَ المنبرَ ، وعيناه تذرفان الدمعَ الهتون ، وأعلن للناسِ بما حدث ، فقال : أيها **الناسُ .. باب خير .. باب خير .. أخبركم عن جيشكم هذا الغازي .. إنهم انطلقوا**

فلقوا العدوَّ .. فقُتِلَ زيدٌ شهيدًا ، ثم أخذَ الرايةَ جعفرُ ، فشدَّ على القومِ حتى قُتِلَ شهيدًا .. ثم أخذها عبدُ اللّهِ بنُ رواحةَ فأصيب ، فأخذها سيفٌ من سيوفِ اللّهِ حتى فتح اللّهُ عليهم .

ولما أقبل الجيشُ إلى المدينة ، استقبله المسلمون يَحْثُونَ في وجههِ الترابَ ، ويعيِّرونه بالفرار ، ولكن القائدَ الأعظمَ ﷺ ، أراهم أن انسحابَ الجيش كان خيرًا ، حيث وقى المسلمين شرَّ الإبادةِ في حربٍ غيرِ متكافئة ، ويُعرفُ الانسحابُ على هذا النحوِ في الفنِّ العسكريِّ بالانسحابِ الاستراتيجي . والقيمةُ العسكريةُ لهذه المعركةِ تكمن في أنها جاءت ردًّا على العدوانِ و إقرارًا لحريةِ العقيدة ، كما أنها كانت أولَ صدامٍ مسلَّحٍ بين العربِ المسلمين ، وبين جيشِ الروم ، وكان أقوى جيشٍ في ذٰلك الحين ، ولم يتردَّد المسلمون في مقاتلته ، بل أوقعوا في صفوفِهِ كثيرًا من القتْلى ، بدليل أنه لم يطارد المسلمين حين انسحبوا في اللحظةِ المناسبة ، فما لم يزد عددُ شهداءِ المسلمين على اثني عشرَ شهيدًا . وكانت المعركةُ درسًا للمسلمين ، وقفوا فيه على طريقةِ تعبئةِ الرومِ وأساليبهم في القتال ، ولم يمض عامٌ واحدٌ على هٰذه الموقعةِ حتى كان المسلمون بقيادةِ النبيِّ ﷺ يتحدّون جيوشَ الرومِ في غزوة « تبوك » فلم يجدوا منها أحدًا .. كما لم تمض مدةٌ قليلةٌ بعد وفاة النبي ، حتى كان خالدُ بنُ الوليد ، يسحق الامبراطوريةَ الروميةَ بسنابك الخيول ..


7
معركة الفتح المبين


فتح مكّة
جيش المسلمين
(10000 مقاتل)
الشمال
رتل الزبير بن العوام
رتل أبي عبيدة الجرّاح
"المهاجرون"
جبل هند
تجمّع المسلمين
مكّة
رتل سعد بن عبادة
جبل أبي قبيس
رتل خالد بن الوليد

معركة الفتح المبين

تضمَّن صلحُ الحديبية نصًّا يبيح الدخولَ في عهدِ الرسول ، لمن شاء ذٰلك من قبائلِ العرب . فدخلت قبيلةُ خزاعةَ في عهدِه ﷺ ، كما دخلت قبيلةُ بكرٍ في عهدِ قريش .. وكان بين القبيلتين دماءٌ في الجاهلية ، وقد حدث أن وقف رجلٌ من بكرٍ يتغنى بهجاءِ رسولِ الله على مسمعٍ من رجلٍ خزاعيٍّ ، فقام هٰذا وضربه ، فثارت كوامنُ الأحقاد ، وتذكر بنو بكرٍ ثأرَهم ، فعقدوا العزمَ على مقاتلةِ خصومهم ، واستعانوا بحلفائهم من قريش ، فأمدُّوهم سرًّا بالعُدَّةِ والرجالِ ثم نهدوا الى خزاعةَ وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين ..

استغاثةُ خزاعةَ بالنبي

انطلق عمرُو بنُ سالم الخزاعيُّ في وفدٍ من قومه ، وأخبروا

النبيَّ ﷺ بنقضِ قريشٍ عهدَ الحديبية ، فأجابه النبيُّ : **نُصِرْتَ يا عمرو بنَ سالم .. والله لأمنعنَّكم مما أمنع نفسي منه ..**

وأحسَّت قريشٌ بخطرِ ما جنت ، فأرسلت « أبا سفيانَ » بنَ حربٍ إلى المدينة ، ليشدَّ العقدَ ويزيدَ في المدة ، فركب راحلته وهو يظنُّ أن الخبرَ لم يبلغ النبيَّ ، فنزل على ابنتِه « أمِّ حبيبة » زوجِ الرسولِ ﷺ ـ وكانت رضي اللهُ عنها قد أسلمت مع زوجِها « عبيدِ اللهِ بن جحش » في بواكيرِ الدعوة ، وهاجرت معه إلى الحبشة . فلما مات هناك ، تزوَّجها الرسولُ ـ وأراد أبو سفيانَ أن يجلسَ على فراشِ رسولِ اللهِ في بيتِ ابنته ، ولكنها طوتْه عنه ، قال لها : يا بنية : أَرَغبتِ بالفراشِ عني ، أم رغبتِ بي عنه ..؟ فقالت : ما كان لك أن تجلسَ على فراشِ رسولِ اللهِ وأنت مشركٌ نجس ، فكانت أولَ صدمةٍ يواجهها أبو سفيانَ في المدينة ..

وخرج من عندِ ابنته ، وأتى الرسولَ في المسجد ، وعرض عليه ما جاء له .. فقال له الرسولُ : **هل حدث شيء .؟** قال أبو سفيان : لا .. قال النبيُّ : **فنحن على مدَّتِنا وصلحنا ..** فقام أبو سفيان ، ومشى إلى أكابرِ المهاجرين من قريش ، علَّهم يساعدونه على مقصدِه ، فلم يجد منهم مُعِينًا ، كلُّهم قالوا له : جِوارُنا في جِوارِ رسولِ الله ..

رجع أبو سفيان إلى مكةَ يجرُّ أذيالَ الخيبة ، وأخبر قومَه ،

فاتهموه بأنه خانهم ، واتبع دينَ محمد ، فتنسَّك عند الأوثان لينفيَ عن نفسِه هٰذه « التهمة » .

الرسول يعلن النفير

أما رسولُ اللهِ فإنه تجهَّزَ للحرب ، واستنفر قبائلَ المسلمين خارجَ المدينة ، وقال : من كان يؤمن باللهِ واليومِ الآخرِ فَلْيَحْضُرْ رمضانَ بالمدينة .

كتمان السر

وطوى رسولُ اللهِ سرَّ استنفارِ المسلمين ، كي لا يشيعَ الأمر ، فتعلمَ قريشٌ فتستعدَّ للحرب ، ولم يكن الرسول يريد حربًا ، بل كان يريد انقيادَ أهلِ مكة ، مع عدم المساسِ بحرمتها ..

ولم يُعْلِم أحدًا بنيَّته ولا باتجاه حركته ، حتى زوجته « عائشة » إذ يُروَى أن أباها الصدِّيقَ دخل عليها وهي تجهِّز الزادَ لرسولِ الله ، فقال لها : يا بنيةُ أمركم رسول الله أن تجهزوه .؟ قالت : نعم .. قال لها : إلى أين .؟ قالت : والله لا أدري .

ولما أخبر الرسولُ بوجهتِهِ قال له أبو بكر : أو ليس بيننا وبين قريشٍ عهد .؟ قال القائد : بلى .. ولكن القومَ غدروا ونقضوا ..

وقدم إلى المدينة جمعٌ من قبائِل « أسلم » و« غفار » و« مزينة » و« أشجع » و« جهينة » ولما اقترب موعدُ المسير ، أعلن الرسولُ أنه متَّجه صوبَ مكة ، وبث العيونَ ليحولَ دونَ وصولِ أخبارِ الجيشِ إلى قريش : ودعا ربَّه قائلاً :

اللّهمَّ خذِ العيونَ والأخبارَ عن قريش ، حتى نبغتَها في بلادِها ..

ولكنَّ « حاطبَ بنَ أبي بلتعةَ » كتب رسالةً أعطاها امرأةً متوجهةً إلى مكةَ ، يخبر فيها قريشًا بوجهةِ الرسولِ إليها ، وعلم الرسولُ بأمر الرسالة ، فأرسل عليًّا والزبيرَ ليدركا المرأةَ ، وقال لهما : **خذَا منها الكتابَ .. فإن أبت فاضربَا عنقَها ..** ثم استدعى « حاطبًا » ليحاسبَه ، فاعتذر له مؤكدًا إسلامَه .. فعفا عنه ٨ هـ .

الزحف العظيم

وتحرك جيشُ العقيدة ، في تعبئةٍ ونظامٍ لم تشهد لهما الجزيرةُ العربيةُ مثيلاً .. وأرسل النبيُّ ﷺ سريَّةً يقودها « أبو قتادةَ » وأمره أن يتَّجه إلى بطن « أضم » حتى يظنَّ من يراه أن القائدَ متوجِّهٌ إلى هٰذه الناحية ، ولِتذهبَ بذٰلك الأخبارُ إلى قريش ، فلا تستعدَّ لحرب المسلمين ..

ولم يزل جيشُ العقيدة سائرًا ـ وكانت عِدَّتُهُ عشرةَ آلافِ

مجاهد ـ إلى أن بلغ موقعَ « مر الظهران » ـ قرب مكةَ ـ فعسكر هناك في ساحةٍ من الأرض ، لا تبلغ العينُ مداها ، طولاً ولا عرضًا .. وأمر القائدُ أن يُشعِلَ كلُّ مسلمٍ نارًا فأوقد المسلمون عشرةَ آلافِ نارٍ أحالت الصحراءَ إلى صفحةٍ متوهِّجةٍ باللهب .

وكانت الأخبارُ قد ترامت إلى قريشٍ بأن محمدًا يقود حشودًا كثيفةً ، فأرسلت أبا سفيانَ وحكيمَ بنَ حزامٍ وبُديلَ بنَ ورقاء ليتلمَّسوا الخبر ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرَّ الظهران ، ليعرفوا مصدرَ النيران .. فلما اقتربوا من موضعِ معسكر المسلمين قال أبو سفيانَ لمن معه : ما رأيتُ كالليلةِ نيرانًا قطُّ ولا عسكرًا .. فردَّ عليه بُديل : هٰذه والله خزاعةُ حمشتْها الحرب .. فقال أبو سفيان : خزاعةُ أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هٰذه نيرانها وعسكرها ..

وظفر حرسُ المسلمين بأبي سفيانَ ومن معه ، فأتوا بهم النبي ، وأسرع عمرُ بنُ الخطاب إلى خيمة النبيِّ وطلب منه أن يأمره بضربِ عنقِ أبي سفيان .. ولكنَّ أبا سفيان أسلم لِيَحْقِنَ دمَه ..

وتابع جيشُ العقيدةِ زحفَه ، حتى بلغ وادي طُوَى .. وهناك قسمه النبيُّ ، فجعل على الميمنة .. خالدَ بنَ الوليدِ وأمره أن يدخلَ مكةَ من جنوبها ..

وجعل على الميسرة « الزبيرَ بنَ العوام » وأمره أن يدخلَ مكةَ من شمالها ..

وجعل قواتِ الأنصارِ بقيادةِ « سعدِ بن عبادةَ » وأمره أن يدخلَ مكةَ من غربها .

وجعل قواتِ المهاجرين بقيادةِ « أبي عبيدةَ بنِ الجراحِ » ليدخلَ مكةَ من شمالها الغربي ..

وأمر العباسَ أن يحبسَ أبا سفيانَ بمضيقِ الوادي ليرى ضخامةَ جيشِ العقيدةِ في تعبئته ونظامِه ، فلا تراود خاطرَه فكرةُ مقاومته ..

وجعلت فرقُ الجيشِ تمرُّ أمامَ أبي سفيان ، كتيبةً كتيبةً ، وهو يسأل عنها .. إلى أن جاءت الكتيبةُ الخضراءُ وفيها رسولُ اللهِ وأصحابُه ، لا يُرَى منهم إلا الحدقُ من الحديد .. فدهش أبو سفيان وسأل العباسَ عنها ، فقال له: هٰذا رسولُ الله في المهاجرين والأنصار .. قال أبو سفيان: ما لأحدٍ بهؤلاء من قِبَلٍ ولا طاقة . والله يا أبا الفضل: لقد أصبح مُلْكُ ابنِ أخيك الغداةَ عظيمًا .. كان أبو سفيان يتصور النبوَّةَ مُلْكًا يُتَوَارَث .. فقال له العباس: يا أبا سفيانَ إنها النبوَّةُ .. وأسرع أبو سفيانَ يخبر قريشًا بالأمر ، ويدعوها إلى الاستسلام .. ودخل جندُ اللهِ مكةَ صبيحةَ يوم الجمعةِ لعشرين خلَوْنَ من رمضانَ من السنةِ الحادية والعشرين للبعثة النبوية (الثامنة من الهجرة) ولم يصادفوا مقاومةً تذكر ، فيما خلا جيشَ خالدِ بنِ الوليد ، فإنه وجد بعضَ المقاومة ، فلمْ يجد

بدًّا من التعاملِ معها ، ودخل مكةَ عُنْوَةً من جنوبها ..

استسلام مكة

ودخل القائدُ المظفَّرُ ﷺ مكة ، وهو راكبٌ على راحلته ، منحنٍ على الرحلِ تواضعًا لله ، حتى إن جبهته لتكاد تمَسُّ الرحلَ .. ونُصِبتْ له قبةٌ « بالحجون » وركز رايته ، ثم استراح قليلاً ، وسار حتى بلغ البيتَ العتيق ، وطاف على راحلتِه ، واستلم الحجرَ الأسودَ وكان حولَ الكعبةِ إذ ذاك ثلاثمئةٍ وستونَ صنمًا ، راح الرسول يطعنها بيده ، وهو يردِّد قول الله تعالى:

(وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا *) .

ثم أمر بالآلهةِ فأُخرجتْ من البيت ، ومحا ما فيه من صور .. ثم وقف على بابِ الكعبة ، وقد جمع له سادةَ الشرك ؛ من الملإِ الذين آذوه وأخرجوه ، وصبُّوا على أتباعِهِ ألوانَ العذاب .. فوقفوا بين يديه ، وعلاماتُ الخزي والهزيمةِ تعلو وجوهَهم ، فخطب النبيُّ قائلاً :

لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له .. صدق وعدَهُ ونصرَ عبدَه ، وهزمَ الأحزابَ وحْدَه .. ألا كلُّ مأثرَةٍ أو مالٍ فهو تحت قدميَّ هاتين . إلاّ سدانةَ البيتِ وسقايةَ الحاجِّ .. يا معشرَ قريش إن اللهَ قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهليةِ وتعظُّمَها بالآباء ..

الناس من آدمَ وآدمُ من تراب .

(**يَاَيُّهَا اَلنَّاسُ اِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَاُنْثٰى وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ اَتْقٰيكُمْ اِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** *) « الحجرات 13 » .

ثم قال : يا معشرَ قريش .. ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم . ؟ قالوا خيرًا .. أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم .. قال لهم : اليومَ أقولُ لكم ما قاله يوسُفُ لإخوته : (**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اَلْيَوْمَ**) اذهبوا فأنتمُ الطلقاء ..

صــوت مــن إفــريــقــيــا

وأمر الرسولُ « بلالَ بنَ رباحٍ الحبشيَّ » بأن يؤذِّنَ على ظهرِ الكعبة ، فكان أولُ صوتٍ تتجاوبِ به الأرجاءُ يومَ الفتحِ العظيمِ في مكةَ هو صوتَ مؤمنٍ من أفريقيا .. كان عبدًا لأميةَ بن خلفٍ أحدِ جبابرةِ المترَفين .. وفي هٰذه اللفتةِ النبويةِ تلقينٌ بالغُ الدلالةِ بأن مقياسَ التفاضلِ في الإسلام هو العمل والإيمان .. وأن المسلمين سواسيةٌ مهما اختلفت الأجناسُ والألوان ..

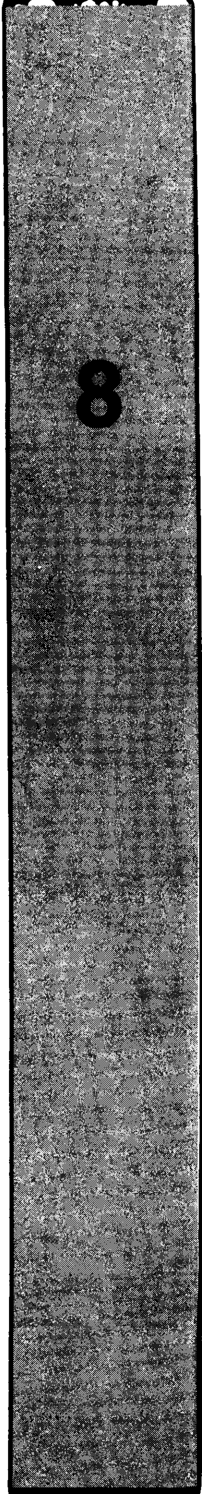
ســقــوط دولــة الــشــرك

وجاء الرجالُ والنساءُ فبايعوا الرسولَ على الإيمانِ باللهِ والعملِ

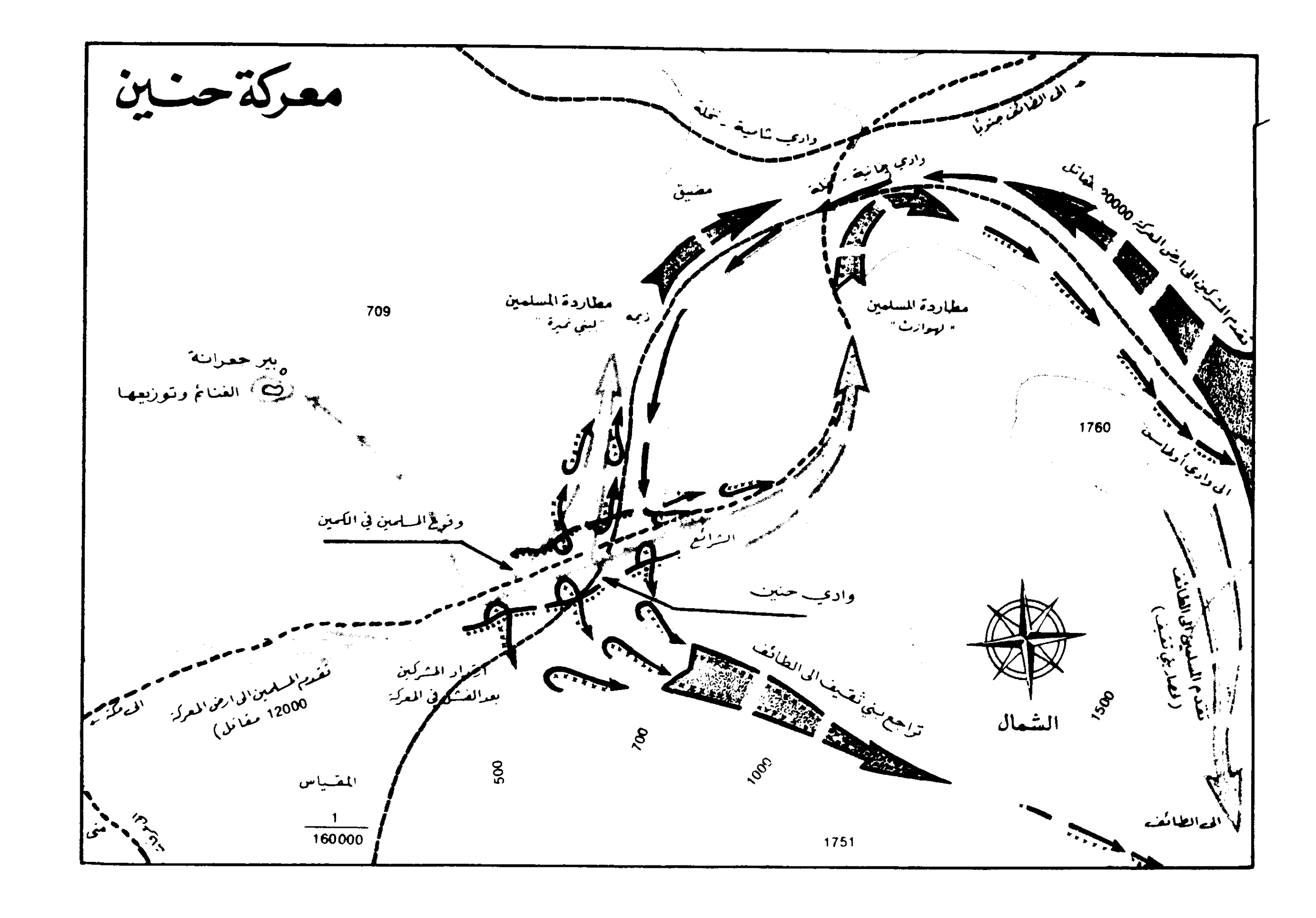
الصالحِ ، وأقام في مكةَ بعد فتحها تسعةَ عشرَ يومًا ، وفي خلالِ مُقامِهِ أرسل خالدَ بنَ الوليد ، لهدم « العُزَّى » أكبرِ صنمٍ لقريش ، وكان ببطنِ مكة ..

ثم أرسل عمرَو بنَ العاص لهدم « سواعَ » وهو أعظمُ صنمٍ لهذيل ، وهيكلُه على ثلاثة أميالٍ من مكةَ ، وبعث بسعدِ بنِ زيد الأشهليِّ في عشرين فارسًا لهدمِ مناةَ وهي صنمٌ لكلبٍ وخزاعة ، فهدموها ..

ودخلت جموعُ العربِ في دينِ اللهِ أفواجًا ، وإلى ذٰلك الإشارةُ بقولِهِ تعالى: (**اِذَا جَآءَ نَصْرُ اَللّٰهِ وَاَلْفَتْحُ * وَرَاَيْتَ اَلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اَللّٰهِ اَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاَسْتَغْفِرْهُ اِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** *) « الفتح » .



يوم حنين



معركة حنين
وادي ثامية - نخلة
مضيق
مطاردة المسلمين
"لبني نمرة"
مطاردة المسلمين
"لهوازن"
709
بير جعرانة
الغنائم وتوزيعها
1760
وفرار المسلمين في الكمين
وادي حنين
فرار المشركين
بعد الفشل في المعركة
تقدم المسلمين الى ارض المعركة
12000 مقاتل
تراجع بني ثقيف الى الطائف
الشمال
1500
700
500
1000
المقياس
1
160000
1751
الى الطائف

يوم حنين

تملَّك الخوفُ قلوبَ الطغاةِ في مكة ، حين رأوا قواتِ التوحيدِ تزحف حثيثًا نحوهم ـ عام ثمانٍ من الهجرة ـ فاستصرخوا خلفاءَهم من هوازنَ وثقيفٍ لنُصرتِهم ، ولكنَّ قواتِ التوحيد دخلت مكةَ من أقطارها ، فأسقطت دولةَ الأوثانِ في أقوى معاقِلها ، قبل أن يخفَّ حلفاءُ الطغاةِ لنجدتهم .

وكان لسقوطِ مكةَ وتحطيمِ أصنامِها دويٌّ هائل .. انخلعتْ له قلوبُ القبائلِ العربيةِ التي غلب عليها عنادُها الوثنيُّ ، وفي مقدمتها : هوازنُ في حنين .. وثقيفٌ في الطائف .. فاجتمع الملأُ منهما ، وتشاوروا في الموقف ، ومدى تأثيرِه على مجملِ الأوضاعِ في الجزيرةِ العربية .. وقرَّ قرارُهم على أن يغزوا رسولَ الله . فقد صوَّرَ لهمُ الفزعُ من سقوطِ مكةَ ، أن محمدًا سيعجِّل بغزوهم ، حيث لا حائلَ يحول بينَه وبينَ هٰذا الغزو .

ولم نجد في كتبِ السيرةِ النبوية ما يشير من قريبٍ أو بعيدٍ إلى

عزمِ الرسولِ ﷺ على محاربةِ هوازنَ أو ثقيفٍ .. بل رأيناه بعد إتمامِ فتحِ مكةَ ، يتأهب للعودةِ إلى المدينة ، مستغفرًا ربَّه ، مسبِّحًا بحمدِهِ بعد أن قوَّضَ حصنَ الشركِ في مكةَ وأَعاد للبيتِ الحرامِ طُهْرَهُ وجلالَه تحت رايةِ القرآنِ الكريم ، ورأى بعينيه أفواجَ الناسِ يدخلون في دينِ اللهِ الواحدِ الأحد ... وهكذا .. كانت هوازنُ وثقيفٌ هما البادئتين بقرعِ طبولِ الحرب ، ومحاولةِ عرقلةِ الدعوةِ الإسلاميةِ عن بلوغِ مداها المقدور .

وأدركت حميةُ الجاهليةِ قبائلَ نصر .. وجشم ، وسعد بن بكر .. وبعض بني هلال ، فتنادت على قرعِ الطبول .. وتخلف من هوازنَ فخذان ، هما كعبٌ وكلاب .. فلم يستجب منهما أحدٌ لداعي الحرب .

التحشُّد في أوطاس

وتولَّى قيادَةَ الجمعِ الوثنيِّ مالكُ بنُ عوفٍ النصري ، وكان شابًّا ذا حماسٍ متوقِّد ، وفروسيةٍ ذائعةٍ ، ولكن التجربةَ الحربيةَ لم تصقله ، فغلب عليه الاندفاعُ الأهوج ، والاستبدادُ بالرأيِ .. وكان قد جعل من أوطاس[1] معسكرًا لتجميع قوَّاته ، وحَشَدَ مع

(1) أوطاس: وادٍ بديار هوازن.

المقاتلين نساءَهم .. وذرياتِهم .. وإبلَهم .. وحميرَهم .. وشياهَهم .. ظنًّا منه أن رؤيةَ المقاتلِ أهلَه ومالَه ، تبعث في نفسه الحميَّةَ والبأسَ والاستماتةَ في انتزاعِ النصر .

وذٰلك رأيٌ سديدٌ لاشك .. إلاَّ أنَّ المقاتلَ الحقَّ إنما يقاتل عن عقيدة قد خالطتْ فيه ذراتِ وجدانِه ، فهو يسترخص في سبيلِها كلَّ متاعِ الدنيا وأعراضِها .. وهٰذه العقيدةُ هي التي تحمله على الثباتِ في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأس ، ومواجهةِ الموتِ بجأشٍ رابطٍ وجنانٍ ثابت .. فإذا افتقد المقاتلُ العقيدةَ فإنه يَفْقِد روحَ الثبات ، حتى لو شُدَّتْ أقدامُه إلى الجبال ، ولن يثنيَهُ عن الفرارِ من المَواطنِ زوجٌ ولا ولد .

وقد اعترض دُرَيدُ بنُ الصِّمَّة ، كبيرُ جشم ـ وكان فارسًا مجرِّبًا ـ على ما فعله مالكُ بنُ عوف .. فقد قال له : إنك قد أصبحت رئيسَ قومك .. وإن هٰذا يومٌ له ما بعدَه من الأيام .. مالي أسمع رُغاءَ البعيرِ .. ونهاقَ الحمير .. وبكاءَ الصغيرِ .. ويعارَ الشاءِ ؟ فقال مالكٌ : سقتُ مع الناس أموالَهم ونساءَهم وأبناءَهم ، قال دريد : وَلِمَ ذٰلك ؟ قال مالكٌ : أردت أن أجعلَ خلف كلِّ رجلٍ منهم أهلَه ومالَه ، ليقاتل عنهم .. فخطَّأَ دريدٌ رأيَه وسَخِرَ منه قائلاً : راعي ضأنٍ واللهِ .. وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفِهِ ورمحِهِ ..

و إن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلِك ومالِك .. ولكنَّ القائدَ المتهوِّرَ لم يكترث لهٰذا النقد الحكيم ، فقال لدريدٍ مستهزئًا : إنك شيخٌ كبرتَ وخرفتَ .. ثم التفت إلى قومه قائلاً : واللهِ لَتُطيعُنَّني يا معشرَ هوازنَ .. أو لأَتَّكئنَّ على هٰذا السيفِ حتى يخرج من ظهري .. وعندئذ صاح المخدوعون من قومه : أطعناك .. أطعناك .. فقال لهم : إذا رأيتموني فاكسروا جفون سيوفكم .. ثم شدُّوا شَدَّةَ رجلٍ واحد .. وبلغ عدةُ مَنِ استخفَّ بهم من هوازنَ وثقيف: أربعةَ آلاف مشرك .

الرسول يستطلع الأخبار

وكان رسولُ الله ﷺ ، قد سمع بأخبارِ هٰذه التحشُّدات ، فبادر يستوثق من أمرها ، فبعث « عبدَ اللهِ بنَ أبي حدرد السلميَّ » ليدخلَ في هوازنَ ويقيمَ بين أهلِها متنكرًا ، حتى يعلم أحوالَهم ، ثم يأتيه بالخبرِ اليقين .. وقد صدَعَ المجاهدُ بأمرِ قائده ، فدخل في القومِ ، وأقام بينهم ، حتى سمِعَ ورأى ما أجمعوا عليه من حربِ المسلمين ، ثم جاء إلى القائدِ ﷺ فأخبره خبرَهم .

الـزحـف إلـى حـنـيـن[2]

رأى رسولُ اللهِ أن حربًا جديدةً قد فُرضتْ عليه . ولم يكن قد مرَّ على فتحِ مكةَ سوى أيامٍ معدودة .. ونظر فرأى أن بقايا الوثنية تريد أن تعيدَ مكةَ إلى رجسِ الجاهليةِ وظلامِها ، لتمارسَ مسخَ الإنسان ، و إذلالَ كرامته ، وَلَيَّ مشاعرِه إلى الولاءِ الزائفِ للمعبودات الباطلة .. كما رأى أن مكةَ لا تزال حديثةَ العهدِ بالإسلامِ ، وأن مِن بينها مَنْ لم يخلع عن نفسِه ربقةَ الشرك ، ومنها من أسلم باللسان ، ولم يطرُقْ قلبَه الإيمانُ .. فقرر القائدُ أن يقبلَ التحدِّي ، وأن ينازلَ العدوانَ في عقْرِ داره ، منتزعًا منه زمامَ المبادرة .. فأذَّنَ بالنفير ، فخرج معه اثنا عشرَ ألفَ رجل .. منهم ألفان من أهل مكة ، والباقُون هم الذين خرجوا معه من المدينة .. كما خرج معه ثمانون مشركًا .. منهم صفوانُ بنُ أمية ، وسهيلُ بنُ عمرو .

وذُكر له ـ وهو متأهبٌ للزحف ـ أن صفوانَ بنَ أميةَ يحتاز دروعًا وسلاحًا ، فأرسل إليه فقال له : أعرنا سلاحَك هٰذا ، لنلقَي به عدوَّنا غدًا .. فقال صفوانُ : أغصبًا يا محمدُ ؟ قال :

---

(2) حنين : اسم وادٍ قريبٍ من الطائف ، بينه وبين مكةَ بضعةَ عشرَ ميلاً .

بل عاريةٌ مضمونةٌ .. قال صفوان : ليس بهٰذا بأس .. فأعطاه مِئة درعٍ بما يكفيها من السلاح .. ثم سأله النبيُّ أن يكفيَهم حملها .. ففعل . وركب رسولُ الله بغلته ، ولبس درعين والبيضةَ والمغفر[3] .. ومضى على وجهه إلى حنين .

ولما قرب الجيشُ من مواقعِ العدوِّ ، صفَّ القائدُ جنودَه ، وعقد الألوية .. فأعطى رايةَ المهاجرين عليَّ بنَ أبي طالب .. ورايةَ الخزرج الحبابَ بنَ المنذر .. ورايةَ الأوسِ أسيدَ بنَ حضير .. وكذٰلك أعطى راياتٍ لقبائلِ العرب الأخرى .

وكانت المقدمةُ مؤلَّفةً من بني سليم بقيادة خالدِ بن الوليد .. أما الطليعةُ فكانت مؤلَّفةً من القطاعاتِ الراكبةِ والفرسان .. وكان القِسْمُ الأكبرُ مؤلَّفًا من القبائلِ الأخرى .. وكانت الكتيبةُ الخضراءُ المؤلَّفةُ من المهاجرين والأنصار في مؤخرةِ القسمِ الأكبرِ ومعها الرسولُ ﷺ .

---

(3) الدرع : قميصٌ من زَرَدِ الحديدِ أو الفولاذ تبطِّنُها بعضُ الموادِ اللينةِ كالقطنِ ، والمِغْفَرُ نسيجٌ من الحديدِ يُلبس تحت البيضةِ على الرأس ، ليكونَ واقيًا إذا وقعت أو انكسرت ويتدلى جزءٌ منه على الوجهِ لحمايته .

وقد استبدَّ الزهوُ بالمسلمين حين رأوا كثرتَهم الكاثرة .. فقال قائلٌ منهم : لن نغلبَ اليوم من قلةٍ[4] .

الصــدام

وعلم المشركون من جانبهم ، بأخبار زحفِ المسلمين إليهم .. فأعدُّوا أنفسَهم لمقابلتهم .. وكانت خطتهم تقومْ على انتشارِ الرماةِ بمرتفعاتِ حنين ، وشعاب الوادي ومنحنياتِه ومضايقِه ، حتى إذا دخلت قواتُ المسلمين في الوادي ، رشقوها بالسهامِ رشقًا كثيفًا ، حتى تتبعثر صفوفُها ، ثم يقومون باكتساحها ومطاردتِها .. وبدأ المعتدون تنفيذ خُطَّتهم ، فاحتلَّ الرماةُ مواقعَهم في مكامِنَ مستورة ، وانتظروا جيشَ المسلمين .

ودخلت قواتُ الإسلامِ وادي حنين فجرًا .. وتذكر إحدى

(4) ذكر ابن هشام في سيرته أن ابنَ اسحاق روى أن القائلَ لذلك رسولُ الله .. كما أورد الخازنُ في تفسيره ما حكاه أبو جعفر الطبريُّ من أن القائلَ لذلك هو الرسول .. وقد علَّق الخازنُ على نسبةِ هذه الكلمةِ إلى الرسولِ قائلاً : وإسناد هذه الكلمةِ إلى رسولِ الله فيه بُعْدٌ .. لأنه ﷺ كان في جميع أحواله متوكِّلاً على اللهِ عزَّ وجل . لا يلتفت إلى كثرةِ عددٍ ولا إلى غيره ، بل نظره إلى ما يأتي من عندِ الله من النصر والمعونة ـ ا هـ ـ وتشير إحدى الرواياتِ إلى أن القائلَ لهذه الكلمة : أبو بكر الصديق .. وفيه بُعْدٌ كذلك .. والصواب أن قائلَها رجلٌ من بكر .

الروايات : أن المسلمين التحموا في بدايةِ المعركةِ بالمشركين ، فاقتتل الفريقان اقتتالاً شديدًا .. فانهزم المشركون ، وخلُّوا عن الأموال والعيالِ .. ثم تنادوا : يا حماةَ السواد .. اذكروا الفضائح .. فتراجع المنهزمون ، وقاتلوا حتى انهزم المسلمون .

وتشير الروايةُ الثانية : إلى أن المسلمين ، حين دخلوا وادي حنين ، فوجئوا بوابلٍ منهمرٍ من سهامِ المشركين ، فانسحبت المقدمةُ وجرفتْ أمامَها قواتِ المسلمين الأخرى ، فساد الذعرُ وارتبكت الصفوف .

وتجْمَعُ الروايةُ الثالثةُ بين الروايتين السابقتين ، فتذكر أن المسلمين حملوا على المشركين فانكشفوا ، فأقبل المسلمون على الغنائم ، فاستقبلهم الرماةُ بالسهام ، فحدثت الهزيمة .

وأيًا ما كان الأمر : فإن أخلاطَ الناس ، من المشركين والأعرابِ وحديثي العهدِ بالإسلامِ مِمَّنْ خرجوا مع المسلمين ، كانوا عاملاً فعَّالاً في الهزيمة .. فهم الذين خرجوا مشاةً وركبانًا ، رجالاً ونساءً ، يبتغون الغنائمَ الباردة ، فلما رشقتهم السهامُ ولُّوا مدبرين ، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد .. ثم راحوا يظهرون الشماتةَ بجند الله ، ويبشِّرون بهزيمتهم .. فمنهم من قال : لا تنتهي هزيمتُهم دونَ البحر .. ومنهم من قال : والله لا يجبرونها أبدًا ، ومنهم من قال : الآنَ بطل السحر .. وبلغت هزيمةُ بعضِهم إلى

مكة .. إنا لنستبعد أن ينهزم المسلمون تحت وطأةِ السهام ، إلا أن يكونَ انسحابًا استراتيجيًا ، يتعرَّفون خلالَه على مكامنِ الضعفِ في عدوِّهم ، ثم ينقضُّون عليه .. فقد أثبتوا خلالَ معاركهم الطويلةِ القاسية ، أنهم أشدُّ ثباتًا من الجبال ، وأن غبارَ المعارك في حلوقهم أشهىٰ من العسل المصفَّى ، وأن الموتَ في سبيلِ اللهِ هو منتهى أمنياتهم .. كما نستبعد أن يكونَ المجاهدون انكبُّوا على الغنائمِ قبل أن يفرغوا من عدوِّهم ، فإن الدرسَ الذي تلقوه في معركةِ « أحد » كان ماثلاً أمام عيونهم ، مغروزًا في وجدانهم .. ومما يزكِّي هٰذا الاستبعادَ أن جندَ الإسلامِ عاودوا الكرَّةَ في الصفحةِ الثانيةِ من المعركة ، دون أن يكونَ معهم الهاربون من مَسْلَمَةِ الفتح ، فإذا هم يسحقون عدوَّهم سحقًا ، ويطاردونه في كلِّ وجه .

القائدُ يحوِّل الهزيمة إلى نصر

ثبت الرسولُ ﷺ حين بُعثِرَت الصفوفُ ، وزُلزِلتِ القلوبُ ، وألقى الهاربون ترابَ الفرارِ في يدِ الرياح .. لم تأخذه المفاجأةُ ، ولم يفتَّ في عَضُدِهِ اختلالُ صفوفِ المسلمين .. فطفق يُرْكِضُ بغلتَهُ قِبَلَ الكفار ، ويصيح بالمنهزمين : إليَّ أيها الناس .. أنا

النبيُّ لا كذب ، أنا ابنُ عبدِ المطلب .. ولكنَّ صيحاتِه كانت تذهب هباءً ، وسط الضجيجِ والعجيج .. وتشير بعضُ الرواياتِ إلى أنه لم يثبت معه سوى نفرٍ قليلٍ لا يتجاوزون أصابعَ اليدين عدًّا .. وكان عمُّه العباسُ بنُ عبد المطلب ، آخذًا بلجام بغلته ، وابنُ عمِّه أبو سفيان ابنُ الحرث بنِ عبد المطلب ، آخذًا بالركاب .. فقال للعباس ـ وكان جهوريَّ الصوت ـ نادِ بالأنصار يا عباسُ ، فأخذ العباسُ يصيح : يا معشرَ الأنصار .. يا أصحابَ بيعةِ الرضوان .. فأسمع مَنْ في الوادي من المجاهدين الذين عَمِيَتْ عليهم الأنباءُ ، ولحقتهم الدهشةُ من فرارِ المنهزمين .. فأجابوه : لبيك لبيك ، وأخذ كلٌّ منهم يلوي عنانَ بعيره ، نحو مصدرِ الصوت ، فيمنعه من ذلك كثرةُ الأعرابِ المنهزمين ، فيقذف درعه في عنقه ، وينتضي سيفَه ، وينزل عن بعيرِه ويؤم الصوتَ .. حتى اجتمع حول الرسولِ نحوٌ من مئةِ مجاهد ، فصفَّهم ، وزجَّ بهم إلى المعتركِ فكرُّوا على المشركين .

وقد حاول « شيبةُ بنُ عثمانَ » أحدُ مشركي مكة ، أن يقتلَ الرسولَ خلال ارتباك المسلمين ، فقال في نفسه : اليوم أُدْرِكُ ثأري من محمد .. وكان أبوه وأخوه قتلا يوم أُحُد ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجل ، وقد عَصَمَ رسولَه من الناس ، أطْلَعَه على طويَّةِ الغادر ، فالتفت إليه وضرب صدرَه قائلاً : أعيذك باللهِ يا شيبة .. ويقول

شيبةُ وهو يحكي هٰذه الواقعةَ : فنظرتُ إليه وهو أحبُّ مِنْ سَمْعي وبصري .. فقلت أشهد أنك رسولُ الله .

ونظر النبيُّ القائدُ إلى مجتلَدِ القوم ، وهو على بغلتِهِ البيضاء ، فقال : الآن حميٰ الوطيسُ .. وآب إلى الميدان كلُّ من انسحب عنه من المجاهدين خلال تبعثُرِ الصفوف ، وأنزل اللهُ سكينتَهُ على المؤمنين فثَبَتَتْ أقدامُهم ، وظل الوطيسُ حاميًا إلى وقتِ الضحى ، حتى تهاوت قواتُ الكفرِ تحت وطأةِ الهجومِ الإسلاميِّ المعاكس ، ففروا منهزمين ، وهرب أميرُهم مالكُ بنُ عوفٍ النصري ، تاركين النساءَ والأموالَ والأولاد .. فأمر رسول الله بجمعِ السبي والغنائمِ في « الجعِرَّانة » وكانت على النحو التالي :

* أربعة وعشرين ألفَ بعير؛
* أربعين ألفَ شاة؛
* أربعة آلاف أوقية من الفضة؛
* ستة آلاف نسمة من العيال .

وتسامع بانتصار قواتِ الإسلام ، أولئك الذين انهزموا إلى مكةَ من الأعراب ومَسْلَمَةِ الفتح ، فعادوا سِرَاعًا إلى حنين ، ليروا أعداءَ اللهِ مكبَّلين بالحبال .

مطاردة المهزومين

أما المهزومون من هوازنَ وثقيفٍ فقد تفرقوا ثلاثَ فرق :

* فرقة لحقت بنخلة ؛
* فرقة عسكرت بأوطاس ؛
* وفرقة هربت إلى الطائف .

فأرسل رسولُ اللهِ فرقًا من المجاهدين ، لتعقُّبِ المهزومين في نخلة وأوطاس ، فبدَّدتْ شملَهُم ، وظفرت بما بقي معهم من الغنائم ، وقُتِلَ « دريدُ بنُ الصِّمَّةِ » بين مَنْ قُتلوا ، ومما يروى عن بطولاتِ جندِ الإسلام في عمليات المطاردة : أن أبا عامرٍ الأشعريَّ رضي اللهُ عنه ، قَتَلَ يومَ أوطاس تسعةً من المشركين مبارزةً ، وحمل على العاشرِ فاستغاث به فعفا عنه فأسلم .

وسار القائدُ ﷺ بمن بقي معه إلى الطائف لردع ثقيفٍ ومن تجمَّع معهم من هوازن ، وجعل على مقدمته خالدَ بنَ الوليد ، ثم لحقت به فرقُ المطاردة .. ولما بلغ الطائفَ ، وجد أهلَها قد تحصَّنوا ، وأدخلوا معهم قُوتَ عامهم ، فعسكر الرسولُ قريبًا من حائطِ الطائف ، فرمت ثقيفٌ معسكرَ المسلمين بالنبالِ ، فقتلوا بعضهم .. فأمر الرسول بالانسحاب بعيدًا عن مرمى النبال . وحاصرهم بضعًا وعشرين ليلةً .. قذف خلالَها حصونَهم

بالمنجنيق ، ونصب الحسكَ الشائكَ لإعاقةِ تقدُّم الخيلِ والرجال ، كما قطع نخيلهم وأعنابَهم .. وكان خالدُ بنُ الوليدِ ينادي للمبارزة ، فلا يجيبه أحدٌ .. وردَّ عليه عبدُ ياليل كبيرُ ثقيفٍ ذاتَ مرةٍ فقال : لن ينزل إليك أحدٌ .. ولكن نقيم في حصننا .. فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين .. فإن أقمتَ حتى يفنى هٰذا الطعامُ خرجنا إليك بأسيافِنا جميعًا ، حتى نموتَ عن آخرنا .. وأمر رسولُ الله مَنْ ينادي : بأن كلَّ من ترك الحصن فهو آمن .. فخرج إليه بضعة عشرَ عبدًا من عبيدِ الطائف ، هاربين من رِقِّ الوثنية ، فحرَّر رقابَهم وأرواحهم .. وقد سأله أهلُ الطائف بعد أن أسلموا أن يعيدهم إليهم ، فقال : لا .. . هؤلاء عتقاءُ الله .

ثم استشار الرسولُ في أمر ثقيف فقيل له : إنهم كثعلبٍ في جُحْرٍ .. إن أقمتَ أخذتَه و إن تركته لم يضركَ .. فرفع عنها الحصار ، وأَذِنَ بالرحيل .. وطلب منه بعضُ الصحابة أن يدعوَ على ثقيف .. فرفع يديه قائلاً : **اللهم اهدِ ثقيفًا وائتِ بهم مسلمين** .

و يذكِّرنا موقفُ الرسولِ من ثقيفٍ بموقفِ ثقيفٍ منه ، يومَ هاجر إليهم يطلب منهم النصرةَ والمنعة ، و يرجو أن يقبلوا دعوةَ الحق ، فوجد في سادتِها قلوبًا أقسى من جلاميدِ الصخورِ في مكة .. وردُّوه ردًّا قبيحًا ، وسلطوا عليه عبيدَهم وسفهاءَهم ، يلاحقونه بالسخرية ، و يقذفونه بالحجارة ، حتى أسالوا دمه ..

ويومها دعا ربَّه أن يهديَهم .. كما دعاه حين أمكنه منهم ، ولم يكرههم على الإيمانِ تحت وطأةِ الحصار ، وما نظن أن حصونَ الطائفِ كانت أمنعَ من حصونِ خيبر .

موقف للمرأة المسلمة

وخلال معركةِ المسلمين في حنين ، رأى رسولُ اللهِ ﷺ أمَّ سليم ـ وكانت قد خرجت مع زوجِها أبي طلحة ـ حازمةً وسطها ببردٍ لها ، ومعها خنجر .. فقال لها : أم سليم ؟ قالت :نعم .. بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك .

فقال لها الرسول : **أو يكفي الله يا أمَّ سليم ؟**

ثم سألها عن الخنجر الذي معها .. فقالت : إن دنا مني أحدٌ من المشركين بقرتُ به بطنه .

تقسيم الغنائم

وعاد رسولُ اللهِ ﷺ إلى الجعرَّانة ، حيث ترك الغنائم ، فأحصاها وخمَّسَها ، وأعطى منها شيئًا كثيرًا لأناسٍ ضعُفَ إسلامُهم يتألَّفُهم بها .. وأعطى أناسًا لم يؤمنوا ليحبِّبَهم في

الإسلام .. وخاف الأعرابُ الذين لم يدخل الإيمانُ قلوبَهم أن تنقصَ أُعطياتُهم من الغنائم ، فصاروا يقولون للرسول : اقسمْ علينا .. حتى أَلجؤوه إلى شجرة ، وخطفوا رداءه ، فغضب الرسولُ وصاح بهم قائلاً : **ردُّوا عليَّ ردائي .. فوالله لو كان لي شجرُ تهامةَ نِعَمًا ، لقسمتُهُ عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جبانًا ولا كدودًا .. ثم قام إلى بعيره ، وأخذ وبرةً من سنامِهِ وقال : أيها الناس .. والله ما لي من غنيمتكم ولا هٰذه الوبرة إلا الخمُسُ .. والخمُسُ مردودٌ عليكم .. فأدُّوا الخياطَ والمخيط ، فإن الغُلُول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يومَ القيامة .**

فصار كلُّ من أخذ شيئًا من الغنائم يردُّه .. ثم أحصى ما بقي من الغنائم وقسمها على سائرِ الناس ، دون الأنصارِ والمهاجرين ، وهم سيوفُ التوحيدِ في مقاومةِ الكفر .. وقد غضب ناسٌ من الأنصارِ حديثةٌ أسنانُهم ، لأنهم لم يُعْطَوْا شيئًا من الغنائم ، فقالوا : إن هٰذا لهو العجب .. يعطي رسولُ اللهِ قريشًا ، ويتركنا .. وسيوفُنا تقطُرُ من دمائهم .. فبلغت المقالةُ رسولَ الله ، فجمعهم وأوضح لهم أبعادَ ما صنعه ، وكان فيما قال :

أغضبتم يا معشرَ الأنصار في أنفسكم لشيءٍ قليلٍ من الدنيا ، أَلَّفْتُ به قومًا ، ووكلتُكم إلى إسلامِكم الثابتِ الذي لا يُزَلْزَلُ ؟ ألا ترضَوْنَ يا معشرَ الأنصار ، أن يذهب الناسُ بالشاةِ والبعير ، وترجعوا برسولِ اللهِ إلى رِحالِكم ؟ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ، لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار .. ولو سلكتِ الناسُ شِعبًا ، وسلكت

الأنصارُ شِعْبًا ، لسلكتُ شِعْبَ الأنصارِ .. اللهمَّ ارحَمِ الأنصارَ .. وأبناءَ الأنصارِ .. وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ .. فبكى القومُ حتى اخضلَّتْ لحاهم .. وقالوا : رضِينَا برسولِ اللهِ قسمًا وحظًّا .. لقد أراد صانعُ الرجالِ ﷺ أن يربِّيَ للإنسانية نماذجَ عاليةً ، في الخلائقِ العظيمة ، التي تستعلي على الدُّونِ من مطالبِ الوجود ، وتجعل الأهدافَ الساميةَ منتهى أمانيها ، وتعلِّمُ البشرَ كيف يكون الزهدُ في الدنيا عندما تُقْبِلُ الدنيا بزينتِها وزخرُفِها ، وهو زهدُ الأقوياء ، لا زهدَ الضعفاءِ البائسين .. وفي هٰذا المشهدِ ردٌّ عمليٌّ على هؤلاء الجفاةِ الذين استبدَّ بهم الفزعُ حينَ البأسِ فولُّوا هربًا ، كما استبدَّ بهم الجشعُ عندما رأوا الغنائمَ ، فأمعنوا فيها غُلُولاً .

وفي هٰذا المشهدِ حُجَّةٌ دامغةٌ على أولئك المستشرقين وأشياعِهِم من المستغربين في زعمهم أن الدعوةَ الإسلاميةَ كانت تندفع بعواملَ اقتصادية ، فهؤلاء هم الأبطالُ من المهاجرين والأنصار لا ينالون شيئًا من المغانم الوافرة ، ويعودون برسولِ اللهِ إلى المدينة ، وأكبرُ همِّهم أن تخفقَ القلوبُ بنبضاتِ التوحيد ، وأن يبذلوا المهجَ الغوالي في سبيلِ الله .

حسن يوسف الحمويني

إعـادة الـسـبـى

وجاء وفدُ هوازنَ إلى رسولِ الله بالجعرَّانة مسلمًا ، فقالوا له : يا رسولَ الله .. إنا أصلٌ وعشيرةٌ .. وقد أصابنا من البلاءِ ما لم يَخْفَ عليك .. فامنُنْ علينا منَّ اللهَ عليك ، فقال لهم الرسول : **إن معي مَن ترون .. وأَحبُّ الحديثِ إليَّ أصدقُهُ.. فاختاروا إحدى الطائفتين : إما المالَ .. وإما السبيَ** .. وكان رسولُ اللهِ انتظرهم بضعَ عشرةَ ليلةً ، حين قفل من الطائف ـ فلما تبيَّن لهم أن الرسولَ لن يردَّ عليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا : إنا نختار سبيَنَا .. فقام رسولُ الله في الناس ، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُه ، ثم قال : **أما بعد .. فإن إخوانكم هؤلاءِ جاؤوا تائبين ، وقد رأيتُ أن أردَّ عليهم سبيَهم ، فمن أحبَّ منكم أن يطيب ذلك فليفعل .. فقال الناسُ : قد طيبنا ذلك يا رسولَ الله .. فقال الرسولُ إنا لا ندري من أذِنَ منكم مِمَّنْ لم يأذَنْ .. فارجعوا حتى يرفع عرفاؤكم أمرَكم** .. فرجع الناس ، وتشاوروا مع عرفائهم ، ثم رجعوا إلى الرسول ، وأخبروه أن قد طيبوا وأذِنُوا ، فردَّ على هوازنَ أبناءها ونساءها .. وسأل رسولُ الله وفدَ هوازنَ عن مالكِ بنِ عوف .. فقالوا : هو بالطائف مع ثقيفٍ .. فقال الرسول : **أخبروه أنه لو جاءني مسلمًا ردَدْتُ عليه أهلَه وماله ، وأعطيتُه مئةً من الإبل** .. فأُخبر مالكٌ بذلك .. فخرج من

الطائف متسلِّلا ، فلحق برسولِ الله ، فردَّ عليه أهلَه ومالَه ، وأعطاه مئةً من الإبل ، وأسلم فحسُن إسلامُه .. فاستعمله رسولُ الله على من أسلم من قومه ومن القبائل الأخرى ، فكان يقاتل بهم ثقيفًا ، لا يخرج لهم سرحٌ إلا أغار عليه ، حتى ضيَّق عليهم .

إسلام ثقيف

وبعد عامٍ من الزمان ، أرسلت ثقيفٌ وفدًا إلى الرسول ﷺ ، ليفاوضَه على الإسلام .. وقد سُرَّ الرسولُ والمسلمون بمقدمِهِ ، وتحدَّث معه طويلاً ، وكان فيما سأل الوفدُ رسولَ اللهِ أن يَدَعَ لهم صنمَ اللات ، فلا يهدمه قبل ثلاثِ سنين فأبى الرسولُ ، فما برحوا يسألونه سنةً سنةً ، ويأبى عليهم حتى سألوا شهرًا واحدًا بعد مقدمِهِم ، فأبى عليهم أن يدعَها ساعةً من نهار .. فاستعفوه من هدمها بأيديهم ، فأعفاهم فأسلموا وبعث معهم أبا سفيانَ بنَ حرب ، والمغيرةَ بنَ شُعبة لهدمِ اللات .. كما بعث معهم منِ يعلِّمُهم ويفقِّهُهم في الدين ، وقد حسُنَ إسلامُهم ، حتى قال المغيرةُ بنُ شعبة : لا أعلم قومًا من العرب كانوا أصحَّ إسلامًا ، ولا أبعدَ أن يوجد فيهم غشٌّ للهِ وكتابِهِ من ثقيف .

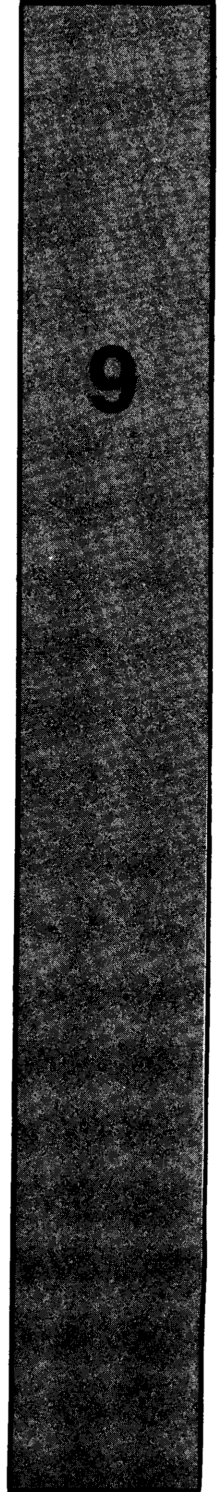
نـتـيـجـة الـمـعـركـة

كانت معركةُ حنين خاتمةَ الصراعِ المسلحِ بين الإسلامِ والوثنيةِ العربية ، كما كانت تأمينًا لفتحِ مكة ، وتمزيقًا لجموعِ الشرك .. . وقد سجل القرآنُ الكريم هٰذه المعركةَ ، مضمنًا تسجيلَه ما تنطوي عليه من عِبَرٍ نافعةٍ فقال عزَّ من قائل :

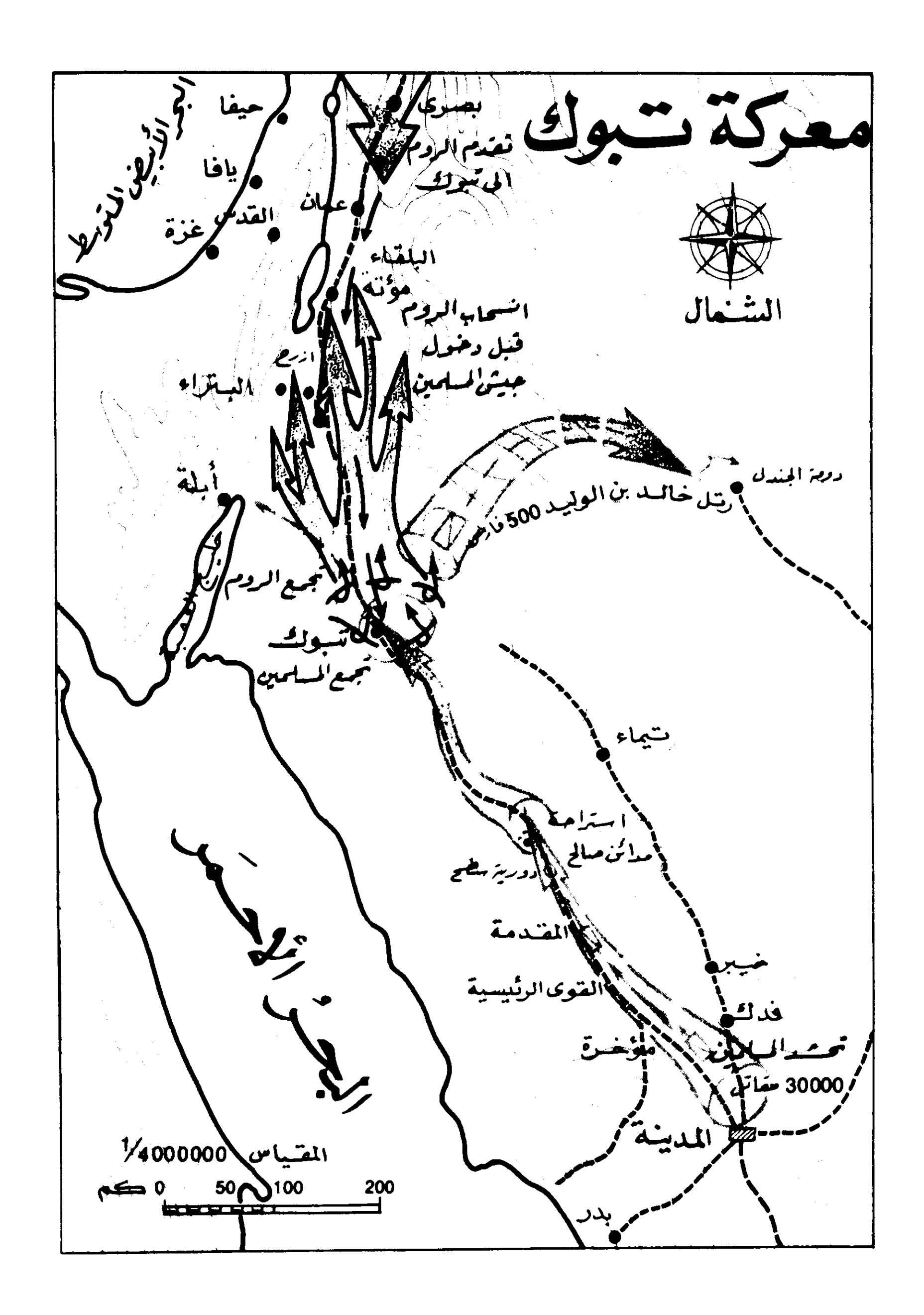
(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« التوبة : 25 ـ 26 » .





تبوك والتحدّي الأوّل للصّليبيّة الغربيّة



معركة تبوك
الشمال
بصرى
تقدم الروم الى تبوك
حيفا
يافا
عمان
القدس
غزة
البلقاء
مؤتة
انسحاب الروم قبل دخول جيش المسلمين
البتراء
أبلة
تجمع الروم
تبوك
تجمع المسلمين
دومة الجندل
رتل خالد بن الوليد 500
تيماء
استراحة
مدائن صالح
المقدمة
القوى الرئيسية
خيبر
فدك
مؤخرة
30000
المدينة
بدر
المقياس 1/4000000
0 50 100 200
كم

تبوك والتحدي الأول للصليبية الغربية

قضيةُ التوحيدِ في الإسلام ...

دعا الإسلامُ منذ مطلَعِه ، إلى توحيدِ اللّهِ سبحانَه وتعالى ، توحيدًا مطلقًا ، متفقًا ذلك مع الفطرةِ السليمة ، والعقولِ الرشيدة ... فاللّهُ جَلَّ جلالُهُ ـ في تعاليمِ الإسلامِ ـ مُنَزَّهٌ عن الصورةِ ، والشكلِ ، والشبهِ ... مُنَزَّهٌ عن الحلولِ في مخلوقاتِهِ ، أو الاتحادِ بها ... لا تدركُهُ الأبصارُ ولا تحدُّه الحدودُ ... هو الأوَّلُ فليس قبلَه شيءٌ ... وهو الآخِرُ فليس بعدَهُ شيءٌ ... وهو الظاهرُ فليس فوقَه شيءٌ ... وهو الباطنَ فليس دونَه شيءٌ ... وهو الواحدُ الأحدُ ، الفردُ الصمدُ ... الذي لم يلدْ ولم يولَدْ ... وليس له قرينٌ ولا شريكٌ ... ولا صاحبةٌ ولا ولدٌ ... هو الخالقُ المهيمنُ ، العزيزُ الجبَّارُ المتكبِّرُ ... وهو الفعَّالُ لما يريدُ ، بغيرِ حركةٍ ولا انفعالٍ .. وهو الكائنُ في كلِّ مكانٍ ، وغيرُ المحدودِ بأيِّ

مكان .. هو مسببُ الكونِ ومبدعُه ، وهو سرُّ الكائناتِ وسيِّدُها وروحُها ومدبِّرُها الأوحدُ .. وليس في وُسْعِ العقلِ البشريِّ أن يدركَ كُنْهَهُ ، أو أن يتصوَّره على أيِّ صورةٍ من الصوَر ، لأن العقلَ البشريَّ مهما توغَّلَ في دروبِ المعرفةِ ، فحلَّقَ في الآفاقِ ، وغاصَ إلى الأعماقِ ، واكْتَنَهَ الأسرارَ ، وسَبَرَ الأغوارَ ، فهو في نهايةِ الأمرِ محدودٌ بما رَسَمَ له اللّهُ تعالى من حدود .. واللّه سبحانَهُ وتعالى هو المطلَقُ .. واللّامتناهي .. واللّامحُدَّد .. وهو ربُّ العالمينَ وإلٰهُهُم وملكُهُم وَحْدَه . . ومالكُ يومِ حسابِهِم وَحْدَه .. والقادرُ فوقَهُمْ وَحْدَه .. وهم جميعًا ـ آمنوا به أو كفروا ـ صنعةُ يَدِه ونفخةُ روحِهِ ورهنُ مشيئتِه ..

بهذه الدعوةِ الناصعةِ الحاسمة ، جاء الإسلامُ .. وعلَّمَ أتباعَهُ منذ مطلَعِهِ: أن الدينَ واحدٌ في كلِّ زمانٍ ومكان ، وأن تعاليمَ الأديانِ كلَّها تنطوي على جوهرِ الحقيقة .. الحقيقةِ التي تتلخَّص في وحدانيةِ اللهِ تعالى ، ووجوبِ التقرُّبِ إليه بصالحِ الأعمال .. وهذه الحقيقةُ هي التي دعا إليها كلُّ رسولٍ أو نبيٌّ سبق على النبيِّ العربيِّ: محمدِ بنِ عبدِ الله ﷺ .. فإذا اختلفت الأديانُ حولَ هذه الحقيقة ، فمردُّ الاختلافِ إلى الكُهَّانِ ، الذين اتَّخذوا الدينَ وسيلةً للجاهِ والنفوذِ ، واكتنازِ الذهبِ والفضةِ ، والإغراقِ في الشهواتِ .. ووظَّفوه في خدمةِ الكهنوتِ والجبروت .. وهذا ما

حدث بالنسبةِ للديانتين: الموسويةِ والمسيحية .. وهما الديانتان اللتان وجدهما الإسلامُ بين ما وَجَدَ من المعتقداتِ المنحرفةِ عن سَنَنِ الحق ، منذ انبثق نورُه في مطالِعِ القرنِ السابعِ الميلادي ..

فالموسويةُ التي دعا إليها نبيُّ اللهِ موسى ، لا تختلف في جوهرها ، عن دعوةِ الإسلامِ .. وكلُّ ما يُرَىٰ عليه اليهودُ حتى الآن ، من زيغٍ وانحرافٍ ، إنما هو من عبثِ الحاخامات ، وما يطالعونه من كتاب يدعونه « التوراة » ليس هو التوراةَ الحقيقيَّة ، التي وصفها القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ... ﴾ المائدة ـ 43 ـ وإنما امتدَّت إليها يدُ الحاخاماتِ الآثمةُ بالوضعِ والتحريفِ والتبديل ، حتى ذهب الأصلُ ، ولم يبق سوى الزيغِ والكذبِ والضلال .. وأوَّلُ ما امتدَّتْ إليه الأيدي الآثمةُ: عقيدةُ التوحيد ، وما تقتضيه من تنزيهٍ وكمالٍ للهِ تعالى .. فاللهُ جلَّ جلالُه ـ كما تزعم التوراةُ المتداوَلةُ ـ ليس ربًّا للعالمين ، وإنما هو ربُّ بني إسرائيلَ خاصة وهم شعبُه الخالصُ المطهَّرُ ولا يختلف الربُّ عندهم عن أيِّ ربٍّ من أرباب الجماعاتِ القديمة ، الذين ينزلون إلى الأرض ، ويتجسَّدون في صورةِ إنسانٍ . . والربُّ في حكاياتِ التوراةِ ، يتصف بالعواطفِ البشرية ، والنقائصِ البشرية أيضًا .. فهو يخطىء ، ويندم ، ويخجل ، ويتأسف ، ويبكي ويتألم .. وهو يحتاج إلى الإنسانِ ،

كما يحتاج إليه الإنسانُ .. تعالى اللّهُ عما يفترون عُلُوًّا كبيرًا .. وبلغ بهم التطاوُلُ على الذات الإلٰهيةِ ، أن دَعَوْا للّه ولدًا .. فقالوا: عزيرُ ابنُ اللّه . . وكذٰلك المسيحُ ابنُ مريم .. هو نبيٌّ مرسلٌ كالأنبياءِ السابقين عليه ، وكخاتَمِ الأنبياءِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ ، سواء بسواء .. دعا إلى وحدانيةِ اللّهِ تعالى وعبادته ، والتقرُّب إليه بالعملِ الصالح ، ولم يقُلْ إلا أنه عبدٌ من عبادِ اللّهِ أُوحِيَ إليه برسالةِ الهدَى .. فإذا كان الخَلَفُ جعلوا منه إلٰهًا ، فليس الذنبُ ذنبَهُ .. وإنما الذنبُ يقع على كاهلِ الكُهَّانِ والأحبار ، الذين طمسوا نورَ الحقيقة ، حبًّا في الحياةِ الزائلة ..

ولم تستطع الموسويةُ ، ولا المسيحيةُ ، في أشكالها المزيَّفَة ، أن تقدمَا للبشرية ، توحيدًا صافيًا ، يوجهها إلى وجهةِ اللّهِ تعالى ، ويرفع عنها إصرَها والاغلالَ التي كانت ترسف فيها ، حتى جاء الإسلامُ ، فجعل وحدانيةَ اللّهِ فوقَ كلِّ شك ، وجعَلَهَا صارمةً ناصعةً ، لا تقبل تحريفًا ولا تأويلاً .. ولقد أمضى رسولُ اللّهِ محمدُ بنُ عبدِ اللّهِ ، ثلاثةَ عَشَرَ عامًا في مكة ، يهدي الناسَ إلى عقيدةِ التوحيد .. عقيدةِ الفطرةِ المبرَّأةِ من شوائب التجسيمِ والتشبيه والتعدُّد ، دون أن تنزلَ عليه آيةٌ واحدةٌ من آياتِ التشريع ..

وتنطوي عقيدةُ التوحيدِ ــ كما هي في جوهرِها ، وكما جاء بها

الإسلامُ الحنيفُ ـ على الغاياتِ الدينيةِ والإنسانيةِ التالية ، التي تحقِّق المقصودَ الإلٰهيَّ من خلْقِ الإنسان:

1 ـ عبادة اللّهِ تباركتْ آلاؤه ، والتقُّرب إليه بالكيفيةِ الصحيحةِ ..

2 ـ استخلاص مشاعرِ النفس ، وملكاتِ العقلِ ، ومحرِّكاتِ الجوارح .. حتى تسلمَ كلُّها للّهِ وحْدَه ، متحررةً من ذلِّ العبوديةِ لسواه ..

3 ـ تحقيق الأُخُوَّةِ الإنسانيةِ ، عن طريقِ إفرادِ اللّهِ تعالى بالربوبية ..

4 ـ تحرير أجسادِ العبادِ من قهرِ المستبدِّين ، وحاجاتِهِم من جشع المستغلِّين ، وعقولِهِم من خرافاتِ الكهَّانِ ، ورجالِ الدِّينِ المحترفين ..

5 ـ الارتفاع بكرامةِ الإنسانِ عن أن يسجدَ لحجرٍ .. أو شجرٍ .. أو حيوانٍ .. أو صنمٍ .. أو ملكٍ جبَّارٍ .. أو حَبْرٍ منَ الأحبار ..

الصدامُ بينَ الحقِّ والباطلِ

وكان لا بدَّ من أن يصطدم الإسلامُ منذ مطلعِه ، بهذه المعتقداتِ الفاسدةِ ، التي كانت تموجُ بها الجزيرةُ العربية .. ومن بينها: معتقداتُ اليهودِ والنصارىٰ .. وقد أراد الإسلامُ لهذا الصدامِ ، ألاَّ يتجاوزَ دائرةَ الجدالِ بالحسنىٰ .. أي بالاحتكامِ إلى البراهينِ العقليةِ ، واستجاشةِ كوامنِ الفطرةِ ، و إزالةِ ما علاها من صدإِ القرون .. ولكنَّ اليهودَ قرروا من البدايةِ ألاَّ يؤمنوا .. فاستبعدوا أن يبعثَ اللّهُ نبيًّا من العرب ، مع أنهم كانوا يبشِّرون بمقدِمِه ، ويستفتحون به على خصومِهِم ، وراعَهم أن ينزِّهَ محمدٌ مَقَامَ الأُلوهيةِ عن التشبيهِ والتجسيدِ والعبث .. وأن يندِّدَ القرآنُ الكريمُ بمقابِحِهِم ، ومساوئِهِم ، كجشعِهِم .. وشُحِّهِم .. وعبادتِهِم للمالِ .. وقولِهِم : إن عزيرًا ابنُ اللّهِ .. ونقضِهِم المواثيقَ مع اللّهِ والناسِ .. ومواقفِهِم المعاديةِ لأنبياءِ اللّه .. ونظرتِهِم الجائحةِ إلى خَلْقِ اللّهِ من البشر .. ومن ثَـمَّ ناصبوا الدعوةَ الإسلاميةَ العداوةَ ، وبادروا المسلمينَ بالكيدِ ، ورسولَ اللّه بالتنكُّر ونقضِ العهدِ .. ناقلين الموقفَ بينهم وبينَ دعوةِ التوحيدِ ، من دائرةِ المجادلةِ الجادَّةِ ، توصُّلاً إلى الحق ، إلى دائرةِ الصراعِ بالسيوفِ والاحتكامِ إلى القوةِ ، مما ألجأ المسلمين إلى مقابلةِ

التحدِّي بالتحدِّي ، ومواجهةِ المعتدينَ باللغةِ التي أرادوها ، حتى انتهت المعاركُ بِخَضْدِ شوكتِهم ، وتطهير أرضِ العرب من رجسِهِم ..

وبنفس طبيعةِ الإسلامِ السمحةِ ، جادل النصارىٰ بالتي هي أحسنُ ، ودعاهم إلى كلمةٍ سواءٍ ، توصُّلاً إلى الحقِّ الذي حجبته مطامعُ الكهانِ .. وكان النصارىٰ قد ابتعدوا عن عقيدةِ التوحيد ، التي جاء بها نبيُّ اللّهِ عيسىٰ ، فقالوا : إن المسيحَ ابنُ اللّهِ ..

وقالوا : إن اللّهَ ثالثُ ثلاثةٍ .. وقالوا : إن اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ ، تجسَّدَ في شخصِ بشرٍ ، ليخلِّصَ الإنسانيةَ من خطيئةِ آدم ، حين أكلَ من الشجرة .. وقد أثارتْ فكرةُ حلولِ اللهِ في جسدِ المسيحِ ، مشاكلَ أساسيةً ، في التعاليمِ المسيحيةِ ، جرتْ من أجلِها الدماءُ أنهارًا ، وافترقتْ المسيحيةُ ، على فرقتين كبيرتين .. كل منهما تسعىٰ لإفناءِ الأخرىٰ .. ويدور هذا الخلافُ حولَ طبيعةِ جسدِ المسيحِ البشريِّ ، الذي ظهر به علىٰ الناسِ ..

فمنهم من قال : إن عيسىٰ بنَ مريمَ ، وهو يسير بين الناسِ ، كان هو الربَّ ، قد ارتدى جسدَ إنسانٍ .. وعلى ذٰلك تكون له طبيعتان : طبيعةُ الربِّ من حيث الجوهرُ ، وطبيعةُ الإنسانِ من حيثُ المظهرُ .. ومنهم من قال : إن عيسىٰ ابنَ مريمَ،وهو يسير بين

الناسِ ، كان مؤلَّفًا من طبيعةٍ واحدةٍ .. هي طبيعةُ اللّه تعالى اللهُ عما يقولون علوًّا كبيرًا ..

الإسلامُ يدعو إلى توحيدِ اللّهِ باستجاشةِ الفطرةِ والاحتكامِ إلى موازينِ العقل

وجاء الإسلامُ بالحقِّ الذي لا يتبدَّل .. فكشف اللثامَ عن وجهِ الحقيقة ، ودفعَ الباطلَ بجيوشٍ من الحجَجِ والبراهين ، موصولةً بجيوشٍ .. أعلن رسول اللهِ ﷺ ، ما أنزله اللّهُ إليه : من قصةِ ولادةِ مريمَ البتولِ وابنِها عيسٰى .. وتكليمِهِ الناسَ في المهد .. وما بيَّنه القرآنُ الكريمُ من أن معجزةَ ولادتِهِ بدون أبٍ ، ليست أعجَب من خلْقِ آدمَ من ترابٍ .. وما أكده من بشريَّتِهِ الخالصة ، وما حكاه من دعوةِ عيسٰى إلى عبادةِ اللّهِ وحدَه .. وما سجله من محاولةِ اليهودِ قتلَهُ وصلبَهُ .. وما عرضه من أحدِ مشاهِدِ القيامةِ ، خاصًا بعيسٰى ، حيث يجمع اللّهُ الرُّسُلَ ويسألُ عيسٰى :

(... **ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ** ...)

فيرتجفُ عيسٰى من هولِ السؤال ، ويعلن أنه ما قال للناسِ إلا ما أُمِرَ بقولِهِ ، من إفرادِ اللّهِ وحْدَه بالعبادة ، وأن ضلالَ الأتباعِ حدثَ بعد وفاتِهِ ، ثم يشهد اللّهُ على ما كان منه في دعوته ، وما

كان من أتباعِهِ الضَّالِّين ..

وقد دعا رسولُ اللّهِ ﷺ ، نصارىٰ العرب .. إلى توحيدِ اللهِ تعالى ، باستجاشةِ الفطرةِ ، والاحتكامِ إلى موازينِ العقلِ ، فقال كما أنزل اللهُ إليه :

* ﴿ **قُلْ يَاَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا الِى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا ٱللّٰهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللّٰهِ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِاَنَّا مُسْلِمُونَ** * ﴾ (آل عمران ـ 64) .

وقال مندِّدًا بالفريةِ القائلةِ بأن اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريم :

* ﴿ **لَقَد كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا اِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يٰبَنِيٓ اِسْرَٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ اِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِٱللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَاْوٰيهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظّٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** * ﴾ (المائدة ـ 72) .

وندَّدَ بالفريةِ القائلةِ بأَن المسيحَ هو ابنُ اللّهِ فقال :

* ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللّٰهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِاَفْوٰهِهِمْ يُضٰهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قٰتَلَهُمُ ٱللّٰهُ اَنّٰي يُؤْفَكُونَ** * ﴾ (التوبة ـ 30) .

كما ندَّدَ بعقيدةِ التثليثِ حيث يقول القرآنُ الكريم :

* ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا اِنَّ ٱللّٰهَ ثَـالِثُ ثَـلٰثَـةٍ وَمَا مِنْ اِلٰهٍ اِلآَّ إِلٰهٌ**

وَاحِدٌ وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *) (المائدة ـ 73) .

وقد احتكم رسولُ اللّهِ محمدُ بنُ عبدِ اللّهِ ، إلى العقلِ في قضيةِ التوحيد ، وَفْقَ ما أنزلَ اللّهُ إليه في قوله :

* (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ *) (الأنبياء ـ 22) .

وقولِهِ عزَّ مِن قائل :

* (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *) (المؤمنون ـ 91) .

وتشير آياتُ القرآنِ الكريمِ ، إلى إسلامِ بعضِ النصارىٰ ، الذين جادلُوا رسولَ اللّهِ بروحِ الإنصافِ والتجرُّدِ في طلبِ الحق ، لما وجدوه من بساطةِ العقيدةِ الإسلامية ، عقيدةِ التوحيد المطلق ، المبرأةِ من شوائبِ التجسيدِ والتشبيهِ والتعدُّد ، والخاليةِ من تسلُّط الكهنة الذين نصَّبوا أنفسَهم وسطاءَ بين اللّهِ وعباده وقبضوا على بصائرِ الناس ، فَخَبَلُوا عقولَهم ، وسَطَوْا على مشاعرِهم ، وابتزُّوا

أموالَهم ، وانتهكُوا أعراضَهم[1] وجعلوا أنفسَهم طبقةً مميزة ، وعاشوا حياةَ التَّرفِ والبذخِ والسرفِ ، ثم لا يخجلون من الحديثِ عن زهدِ المسيح ..

ولم يردْ في القرآنِ الكريمِ ، دعوةُ المسلمين إلى إكراه اليهودِ والنصارىٰ على الإسلام ، لا تصريحًا ولا تلميحًا .. و إنما ورد فيه صراحةً في أكثرِ من موضعٍ ، ما ينهى عن إكراه الناسِ على الإسلام ، لأن العقائدَ مناطُها القلبُ والعقلُ ، ولا سلطانَ عليهما إلا باستجاشةِ الفطرةِ ، ونصاعةِ الدليلِ .. كما أن الإكراه يتعارض رأسًا مع حريةِ العقيدة .. وقد جاء الإسلامُ ليقرِّرَ هذه الحرية ، ويرفعَ قواعِدَها ، ويقاتلَ دونَها كلَّ من يعتدي عليها ..

وفي ذٰلك يقول القرآن الكريمُ :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنْفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ـ 256) .

---

1 ـ كان الكهنةُ في العصورِ الوسطىٰ، يتمتعون بما يسمّى بحقِّ الليلة الأولى.. ويقضي هذا الحقُّ المزعومُ بألاَّ تُزَفَّ عروسٌ إلى زوجها، قبل أن تُزَفَّ إلى أحد كبراءِ الكهنة، لتحدثَ «البركةُ والخصوبةُ» للحياة الزوجية. ويُعَدُّ الزواجُ الذي يتمُّ بغير هذه الطريقة، زواجًا غيرَ شرعي..

ويقول:

* ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * ﴾ (يونس ـ 99) .

ويقول أيضًا:

* ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ * ﴾ (الكافرون ـ 6) .

وقد بدأ اتصالُ الإسلامِ بالنصرانيةِ « الرسميةِ » حين هاجر المسلمونَ إلى « الحبشةِ » فرارًا من عسْفِ المشركين في مكةَ .. وتذْكُرُ بعضُ الرواياتِ: أن النبيَّ محمدًا بعث إلى « النجاشيِّ » ملكِ الحبشةِ ، بكتابٍ مع ابن عمِّه « جعفرَ بنِ أبي طالبٍ » جاء فيه:

(بسمِ اللّهِ الرحمٰنِ الرحيمِ .. من محمدٍ رسولِ اللهِ ، إلى النجاشيِّ الأصحمِ ملكِ الحبشةِ .. سلامٌ أنت .. فإنِّي أحمدُ إليك اللهَ الملكَ القدوسَ ، السلامَ المؤمنَ .. وأشهد أن عيسىٰ ابنَ مريمَ روحُ اللّهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ البتولِ الطيبةِ الحصينةِ ، فحملت بعيسىٰ ، فخلقه اللّهُ من روحِهِ ونفْخِهِ .. و إني أدعوك إلى اللهِ وحْدَه لا شريكَ له ، والموالاةِ على طاعتِهِ ، وأن تتبعني ، وتؤمنَ بالذي جاءني ، فإنِّي رسولُ اللّهِ .. وقد بعثت إليك ابنَ عمِّي « جعفرا » ونفرًا معه من المسلمين .. فإذا جاؤوك فأقرهم ، ودعِ التجبُّرَ .. فإني أدعوك وجنودَك إلى اللّهِ .. فقد بلَّغتُ

ونصحتُ ، فأقبلوا نصحي .. والسلامُ على من اتَّبعَ الهدى ..) .

• وتُجمِعُ الرواياتُ على أن المهاجرين إلى الحبشة ، حظُوا بالعطفِ والبرِّ والأمانِ ، من جانب النجاشيِّ ، بعد أن تأثر بما سمعه منهم ، من آيات القرآنِ الكريمِ ، خاصًّا بنبوَّةِ عيسىٰ ، ودعوتِهِ إلى وحدانيةِ اللّهِ ، ويشير ابنُ هشام ، في روايته عن ابن إسحاق ، إلى أن النجاشيَّ اعتنق الإسلامَ .. ولما مات صلَّى عليه النبيُّ واستغفر له ..

الإسلامُ والدولةُ الروميةُ

ومن طبائع الأشياء ، أن تتسامع الدولةُ الروميةُ ، بأخبارِ النبيِّ العربيِّ ، ودعوتِهِ المدوِّيةِ إلى التوحيدِ المطلقِ ، بما تنطوي عليه ، من أبعادٍ عميقةِ الأثرِ .. وأن يتناهىٰ إليها صراعُهُ مع قُوىٰ الوثنيةِ العربيةِ .. وموقفُهُ من معتقداتِ اليهودِ والنصارىٰ .. و إجلاؤه يهودَ بني قينُقَاع ، وبني النَّضِير .. وخروجُهُم إلى « أذرعاتِ » بالشام .. ثم وقعتُه ببني قُريْظَة ، وتأهُّبُهُ لمناجزةِ قبائلِ العربِ المتنصِّرة ، القابعةِ على حدودِ الشام ، جزاءَ قطعِها الطريقَ على قوافلِ المسلمين .. ولكنَّ الدولةَ الروميةَ « البيزنطيةَ » لم تحرك

ساكنًا إزاء هذه الثورةِ الزاحفةِ من صحراءِ العرب ، والتي تختلف من جميع الوجوه عن غارات البدوِ على جنوبِ الشام .. والحقيقة أنَّ الدولة الروميةَ ، لم تُدِرْ ظَهْرَهَا لثورةِ التوحيدِ راضيةً مختارةً ، وإنما أرغمتْها هزيمتُها الساحقةُ أمام الفرسِ على السكونِ إلى حين .. فكيف كان ذلك؟ .

في غمرة الصراعِ التاريخيِّ بين الرومِ والفرسِ ، ظهر « كسرىٰ أبرويز » ملكُ الفرسِ الساسانيين ، وأوقع بالدولةِ الروميةِ هزيمةً نكراءَ بلغت فيها جيوشُه حدودَ البسفور ، واجتاحت سوريا ، واحتلَّتْ انطاكيا ، ودمشقَ ، والقدس عام 614م ، ثم دخلت جيوشُه مصرَ ظافرةً عام 619م ، حتى ردَّها على أعقابها قيصرُ الرومِ « هرقل » عام 628م ، وتقع فترةُ هزيمةِ الروم ـ على ما نراه ـ ما بين السنةِ الخامسةِ للبعثةِ المحمدية ، إلى « صلحِ الحديبية » في السنة التاسعةَ عشرةَ للبعثةِ المحمدية (السنة السادسة للهجرة) وإلى هذه الهزيمة يشير القرآنُ الكريمُ في قوله:

﴿ **الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** * ﴾ (الروم ـ 1 ـ 5) .

وقد انتصر الرومُ في بضع سنين ، كما أخبر القرآنُ الكريمُ ـ

البضعُ ما بين الثلاثِ إلى التسع ـ ويبدأ البضعُ من عام 619م حين استولى الفرسُ على مصر ـ التي كانت تابعةً للدولةِ الرومية ـ إلى عام 628م ، وينطوي هذا الخبرُ القرآنيُّ المعجزُ ، على تسجيلٍ دقيقٍ للأحداثِ العالميةِ ، التي صاحبْت تفجُّرَ الثورةِ الإسلامية ، كما يكشف السرَّ عن سكوتِ الرومِ الصليبيين ، على ثورةِ التوحيدِ ، طوالَ أربعةَ عَشَرَ عامًا من الزمان ، قطعت منها الثورةُ في مكةَ ، ثمانيةَ أعوامٍ ، وفي المدينةِ ستةَ أعوامٍ أخرى ..

الصراع مع القبائل المتنصِّرة

وفي غيابِ الدولةِ الروميةِ المهزومةِ، تولَّتْ قبائلُ العربِ المتنصِّرةُ على الحدودِ الشمالية، جريمةَ مقاومةِ الدعوةِ الإسلاميةِ، منذ هاجرَ المسلمون إلى المدينة، وصارت لهم فيها قاعدةٌ آمنةٌ.. وتذكر الرواياتُ أن هذه القبائلَ وقفت من المسلمين موقفَ المعاكسةِ والعدوانِ على قوافلِ ميرتِهم إلى الشام، وكان بين هذه القبائِلِ، وبين أغنياءِ مكةَ علاقاتٌ تجاريةٌ وثيقةٌ، فكأنها استهدفت من عدوانِها على قوافلِ المسلمين إلى إرضاءِ حلفائِها المشركين في مكة، ومحاولةِ وضع العصيِّ في عجلةِ الثورةِ العربية، ولكن الرسولَ ﷺ قطع على هذه القبائلِ عبثَها وأوهامَها، ولم يألُ جَهْدًا في

هدايتها إلى نورِ التوحيدِ، ليرفعَ عنها أغلالَ الجهالةِ والتبعية، ويعيدَها إلى أحضانِ أمتِهَا العربية، ويزيلَ الصدأَ الذي رانَ على قلبِها كنتيجة للمعتقداتِ الباطلة..

ففي السنةِ الخامسةِ للهجرةِ النبوية، بلغ الرسولَ أن جمعًا من الأعرابِ بـ «دومةِ الجندل»[2] يظلمون من يمرُّ بهم من المسلمين، ويتهيؤون للدُّنُوِّ من المدينة، فتجهَّزَ للحملةِ عليهم، وخرج في ألفٍ من المجاهدين، يسير الليلَ ويكمن النهارَ، حتى قرب منهم، فلما بلغهم الخبرُ، تفرَّقوا.. ونزل القائدُ ﷺ بساحتهم، وبثَّ السَّرايَا في كلِّ وجه، فلم يعثر لهم على أثر..

وفي السنة السادسةِ للهجرة، أرسل النبيُّ «عبدَ الرحمٰنِ بنَ عوفٍ» مع سبعمئةٍ من الصحابة، لردع «بني كلبٍ» في «دومةِ الجَنْدل» حيث كانوا يغيرون على المسلمين في طريقِهِم إلى الشام، فلما حلَّ المسلمون بديارِهم، دعَوْهُم إلى الإسلامِ ثلاثةَ أيام، وفي اليوم الرابعِ أسلم رئيسُهم «الإصبعُ بنُ عَمْرٍو النصرانيُّ» وأسلم معه جَمْعٌ من قومِهِ، وتزوج عبدُ الرحمٰنِ ابنةَ الإصبع..

وفي السنةِ السادسةِ أيضًا، وقعتْ معركةُ «الحديبية»[3] وأمِنَ

---

2 ـ دومةُ الجندل: مدينةٌ بينها وبين المدينةِ خمسَ عشرةَ ليلةً، وبينها وبين دمشقَ خمسَ ليالٍ..

3 ـ راجع صفحة «81» وما بعدها عن معركة «الحديبية».

الطريقُ من قريش، فكاتب الرسولُ ﷺ، ملوكَ الأرض وأباطرتَها وأقيالَها ورؤساءِها، يدعوهم إلى عقيدةِ التوحيدِ، منذرًا بعذابِ اللّهِ إذا هم أعرضوا عن هذه العقيدةِ، محقِّقًا بهذه الدعوةِ عالَميةَ الدينِ الإسلاميِّ، الذي ختم اللّهُ به رسالاتِ السماءِ، وأودع في تضاعيفِهِ عناصرَ الدياناتِ السابقة، وحاجاتِ العصورِ المتلاحقةِ.. وكان مِمَّنْ كاتَبَهُمْ الرسولُ: والي «دمشقَ» من قِبَلِ «قيصرَ الروم» المسمّى: الحارثَ بنَ أبي شِمْرِ الغسَّاني.. وملكُ «بُصرىٰ» وهما عربيان نصرانيان.. أما والي دمشقَ، فإنه رمى بكتابِ النبيِّ حين وصل به رسولُه «شجاعُ بنُ وهبٍ» وصاح مستكبرًا: من ينزع ملكي مني؟ ثم قال لشجاع: أخبر صاحبَك بما ترى.. واستعدَّ ليرسلَ جيشًا لحرب المسلمين، وأرسل إلى قيصر يستأذنه، فأمره هذا بالتريُّثِ في الأمر، وطلب إليه أن يُهيِّئ بإيليا ما يلزم لزيارته، لأنه نذر زيارتَها بعد أن قهرَ الفرسَ..

وأما ملكُ بصرىٰ، فإن الكتابَ لم يصله، وذٰلك أن «والي مؤتةَ» الغسَّانيَّ، المسمى «شرحبيل بنَ عمرو» تعرض لرسولِ النبيِّ «الحارثِ بنِ عميرٍ الأزدي» وهو في طريقِه إلى بُصرىٰ، فسأله: أين تريد؟ قال: الشام.. قال شرحبيل: لعلك من رسلِ محمد؟ قال: نعم: فأمر به شرحبيل فضُربتْ عنقُه، ولم يُقتَلْ لرسولِ اللّهِ رسولٌ غيره..

وعندما رجع «دحيةُ بن خليفة الكلبيّ» من عند قيصرِ الروم ـ بعد أن سلَّمه كتابَ النبيِّ ـ تعرض له «بنو جذام» النصارى، وكانوا ينزلون وراء وادي القرى، فسلبوا ما معه من متاعٍ، فبعث الرسولُ سريةً، بقيادةِ زيدِ بنِ حارثةَ، إلى بني جذام، فأغار عليهم تأديبًا لهم وقصاصًا منهم.. وجاء رفاعةُ بنُ زيدٍ الجذامي، الذي كان أسلم مع بعضِ قومِه، فاستشفع الرسولَ، فقبل شفاعَتَه، وردَّ إلى قومِهِ كلَّ ما أُخِذَ منهم..

وهكذا كانت القبائلُ العربيةُ المتنصِّرة، تنظر إلى دعوةِ التوحيدِ العربية، نظرةَ الجهولِ المغيظِ، مع أنها كانت دعوةً لتحريرِهم من ذلِّ التبعيةِ للروم، ومن المعتقداتِ المجافيةِ لفطرةِ الله.. وخَشِيَ النبيُّ أن تكونَ هذه الاعتداءاتُ المتكررةُ على المسلمين، مقدمةً لمهاجمةِ المدينة.. وكانت الظروفُ قد نضجتْ بعد صلحِ الحديبية، لتصفيةِ الحسابِ مع يهودِ خيبر، فسار إليهم في السنةِ السابعةِ للهجرة، وحاصرهم وقاتلَهم، حتى استسلموا على النحو الذي ألمحنا إليه في معركة «خيبر»[4] وبسقوط هذا الجيبِ الخبيثِ، توطَّدت هيبةُ المسلمين في المنطقةِ الشمالية..

وفي السنة الثامنةِ للهجرة، بعث النبيُّ ﷺ «كعبَ بنَ عمير»

---

4 ـ راجع صفحة «111» وما بعدها عن معركة «خيبر».

الغفاريَّ إلى «ذاتِ أطلاح» من أرض الشام ، في خمسةَ عشرَ مجاهدًا، ليبشروا بعقيدةِ التوحيد، فوجدوا هناك جمعًا كثيرًا، فدعَوْهم بدعايةِ اللّه، فلم يجيبوهم، بل عَدَوْا عليهم وقاتلوهم، فاستشهدوا إلا قائدهم، فإنه نجا، وجاء بالخبر إلى رسولِ الله، فشقَّ عليه الأمرُ، وأراد أن يبعث إلى المعتدين من يقتصُّ منهم، ولكن بلغه أنهم تحولوا عن منازلهم..

وفي السنة الثامنة للهجرة، جهز الرسولُ ﷺ، جيشًا من المجاهدين، بلغت عِدَّتُه ثلاثةَ آلاف، للقصاصِ مِمَّن قتلوا «الحارثَ بنَ عميرٍ الأزديَّ» رسولَه إلى ملكِ «بُصرى» وأمَّرَ عليهم زيدَ بنَ حارثة، وقال لهم: إن أصيبَ زيدٌ فالأميرُ جعفرُ بنُ أبي طالب، فإن أصيبَ فعبدُ الله بنُ رواحةَ.. وشيَّع الرسولُ الجيشَ، وكان فيما وصاهم به: **(اغزُوا باسمِ الله.. فقاتلوا عدوَّ اللّهِ وعدوَّكم بالشامِ وستجدون فيها رجالاً في الصوامعِ معتزلين فلا تتعرَّضوا لهم، ولا تقتلوا امرأةً ولا صغيرًا، ولا شيخًا فانيًا، ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناءً..)** وحدثت معركةُ «مؤتة»[5] التي شاركت فيها الكتائبُ الرومية، إلى جانبِ القبائلِ العربيةِ المتنصِّرةِ من بهراءَ وبكرٍ وجذام.. وانتهت المعركةُ بانسحاب المسلمين على يد

---

5 ـ راجع صفحة «125» وما بعدها عن معركة «مؤتة».

خالدِ بن الوليد، بعد أن قُتِلَ أمراءُ الجيش على التعاقب.. وقد أفاد المسلمون كثيرًا من هذه المعركة، من خواصِّ القواتِ الرومية، من حيث التنظيمُ والتسليحُ وأساليبُ القتال، مما ساعدهم على مواجهةِ الروم في المعارك التاليةِ، بكيفيةٍ متميزة..

الصليبيون يكشِّرون عن أنيابهم

وكان الرسولُ ﷺ، قد كاتب قيصرَ الروم «هرقل» بين مَنْ كاتبهم يدعوه إلى عقيدةِ التوحيد، وفيما يلي نصّ الكتابِ، حسب ما أوردته الرواياتُ التاريخية:

(بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم.. من محمدٍ رسول اللهِ.. إلى هرقلَ عظيمِ الرومِ.. السلامُ على من اتَّبعَ الهدَى.. أما بعدُ: فإنِّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلامِ.. أَسْلِمْ تَسْلَمْ.. وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مرتيْن.. فإن تولَّيْتَ فإن إثْمَ «الإريسيين» عليك.. و(يَاأَهْلَ الْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ*).

وفي قول الرسول: **(فإن تولَيْتَ فإن إثمَ الإريسيين عليك)** تحميلٌ للحاكِم الضَّال، وزرَ ضلالِ الأتباع. لأنه الذي يحول بينهم وبين الهُدَى، بما وضع تحت يدِه، من وسائلِ القمعِ

والاستخفافِ والإغواء، كما أنه ينطوي على المعنى الجماهيريِّ للإسلام، وهو رفعُ الظلمِ عن الجماهيرِ، ووضعُ مقاليدِ أمورِها في يدِها. ولفظُ «الاريسيين» كما ورد مفسرًا في بعض الروايات، يعني الفلاحين، والأكَّارين، وهم السوادُ الأعظمُ للجماهير..

وقد وصلَ كتابُ الرسولِ إلى قيصرَ، يحمله «دِحْيَةُ بنُ خليفةَ الكلبيُّ» وكان قيصرُ حينئذٍ ببلادِ الشام، ليتفقَّدهَا بعد أن استردَّها من الفرس.. وغلبتْ على قيصرَ شِقْوَتُه، فلم يستجب لدعوةِ التوحيد.. وقيل إنه عَرَضَ الكتابَ على الطبقةِ الروميةِ المتحكِّمةِ في أقدارِ الجماهير، فارتاعتْ منها، وصدَّت عنها صدودًا، فباء المستكبرون بإثمِهِم و إثم الذين استُضْعِفُوا..

و يذكر ابنُ هشام، نقلا عن ابنِ إسحاقَ، أن فروةَ بنَ عَمرو النافرة الجذاميَّ» بعث إلى النبيِّ ﷺ، رسولاً من قِبَلِهِ يعلن إسلامَه، وأهدى إليه بغلةً بيضاءَ.. وكان فروةُ عاملاً للرومِ على من يليهم من العرب، وكان منزلُه «معان» وما حولها من أرضِ الشام.. فلما بلغ الرومَ ذٰلك من إسلامه، طلبوه حتى أخذوه، فحبسوه عندهم، ثم قتلوه وصلبوه على ماءٍ لهم يُقال له «**عفراء**» بفلسطين..

و يروىٰ أنه حين قُدِّم ليُقتَل قال:

بَلِّغْ سَرَاةَ المسلمينَ بأنِني
سلِمٌ لربِّي أعظُمِي ومَقامِي

ومعنى ذلك أن الروم، بدؤوا يكشّرون عن أنيابِهم الصليبية، لثورةِ التوحيدِ، بعد أن ردُّوا الكرَّةَ على الفرس، وأنهم قرَّروا أن يقاوموا ثورةَ التوحيدِ بأنفسهم، بعد أن أيقنوا أن قبائلَ الحراسةِ العربيةِ المتنصِّرة، لا قِبَلَ لها بهذه الثورة، التي استوتْ على سُوقِهَا عملاقًا شديدَ البأسِ. وأمضَّ الصليبيين أن يخرجَ من هذه القبائلِ، من يعتنق دينَ التوحيد، تحت رايةِ النبيِّ العربيّ.. ولم يذكروا أن هذا النبيَّ أخبر على لسانِ الوحي، بغلبتِهِم على الفرس، وأن الفرحةَ غمرتْ المسلمين يوم انتصارِهم، ولم يتبصَّروا في إخبار القرآنِ الكريم، بما استكنَّ في ضميرِ الغيبِ من انتصارِهم في بضعِ سنين، ودلالة هذا الإخبارِ على صدقِ القرآنِ الكريم، وأنه صادرٌ عن اللهِ الذي يعلم غيب السماواتِ والأرض.. كما لم يذكروا أن النبيَّ العربيَّ دعاهم إلى كلمةٍ سواءٍ على عبادةِ اللّهِ وحدَه، وأنه لم يُكْرِهْ أحدًا على الإيمان بدعوةِ التوحيد.. ولكن الحقدَ الصليبيَّ أضلَّهم وأعمىٰ أبصارَهم، وملأهم إحساسًا بالخوفِ على جبروتِهِم وهيبتهم ومستعمراتهم..

العدوانُ الصليبيُّ الأولَ

وترجموا حقدَهم إلى مواقفَ عمليةٍ، بلغت ذروتَها حين جيَّشوا جيوشَهم بالشام، واستنفروا القبائلَ العربيةَ المتنصِّرةَ، من لخم وجذام وغسان، وأعطى «هرقلُ» جنودَه نفقةَ عامٍ كامل، استعدادًا للزحفِ على مدينةِ الثورةِ الإسلاميةِ، لتحديدِ انتشارِ عقيدةِ التوحيدِ في بلادِ الشام، وللقضاء على منافسةِ المسلمين للدولةِ الرومية، في السيطرةِ على العربِ الخاضعين لها..

مجابهة العدوان

وجاءت الأخبارُ إلى رسولِ الله ﷺ بهذه التجمعات، فاستعدَّ من فوره لدرءِ الخطرِ، واستباق الوقتِ لمبادرة المعتدين بالهجوم. قبل أن يبادروه بالعدوان.. وكان ذٰلك في صيفٍ شديدِ القيظِ من السنة التاسعةِ للهجرةِ النبويةِ، حيث كانت ثورةُ التوحيدِ قد أسقطت دولةَ الأوثانِ في مكة، ودخل العربُ طائعين في دين اللّه. وتحطمتْ شوكةُ اليهودِ نهائيًا، ورفرفتَ رايةُ القرآنِ الكريمِ على جزيرةِ العرب كلِّها حتى حدود الشام والعراق، وقام أولُ مجتمعٍ لعقيدةِ التوحيد على انقاضِ المجتمعِ الوثنيِّ الجاهلي..

وكان رسولُ اللّه ﷺ، قلمًا يخرج إلى معركةٍ، إلا وَرَّى بغيرها ـ أي أظهر وجهًا غيرَ الوجهِ الذي يريده ليعميَ الخبرَ على العدوِّ ـ إلا ما كان من «تبوك» فإنه جَلَّى أمرَها للناسِ ليتأهبوا أهبةَ عدوِّهم..

وقد سجل القرآنُ الكريمُ، موقفَ بعض المؤمنين، حين أمرهم الرسولُ بالتجهزِ لغزوِ الرومِ، حيث شقَّ عليهم خروجُهم، استعظامًا لقوةِ الرومِ العسكرية، ولما كانوا عليه من شدةِ الزمان، وضيقِ الوقت، وحدَّةِ القيظِ، وبُعْدِ المسافةِ، وحاجةٍ إلى كثرةِ الاستعدادِ من العُدَدِ والزاد.. ولكنَّ القرآنَ الكريمَ ألقى عليهم درسًا في الجسارةِ والتضحيةِ، والنُّفْرةِ لمقارعةِ العدوِّ، خفافًا وثقالاً، صيفًا وشتاءً، في العسرِ واليسرِ، والمنشَطِ والمكرَهِ، وحذَّرَهم التباطُؤَ في الخروجِ للعدو، لأن التباطُؤ يعني تقدُّمَ العدوِّ إلى بلادِهم، وتحقيق أهدافِهِ في استئصالِ شأفتِهم..

يقول القرآن الكريم في صددِ معركةِ تبوك:

* ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ (التوبة ـ 38).

ثم يحذرُ المؤمنين من سخطِ اللّهِ وعذابِهِ، واستبدال غيرِهم بهم، إذا لم يَخِفُّوا الى النَّفيرِ دفاعًا عن عقيدتِهم، وردِّ المعتدِين عن

حياضِهم فيقول:

* ﴿إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ (التوبة ـ 39.

ثم يوجه إلى جماهيرِ المؤمنين ـ على تعاقبِ أجيالِهم ـ أمرًا عامًّا صريحًا بالجهادِ في كلِّ الأحوال، فيقول:

* ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾ (التوبة ـ 41).

وينطوي هذا الدرسُ ـ فيما ينطوي عليه ـ على أن يكونَ المسلمون تحت السلاحِ دائمًا، بحيث يهبُّون لمقارعةِ عدوِّهم، بمجرَّدِ أن يتوجَّسُوا الخطرَ من جانبه، وَفْقَ ما جاء في قولِهِ تعالى:

* ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ *﴾ (الأنفال ـ 58).

كما ينطوي على عدمِ استعظامِ أمرِ العدو، مهما كانت قوتُه، وعدم التراجعِ في مواجهته، بل يجب خوضُ الصعابِ بالقوةِ اللازمة، مع التوكُّل على اللّه تعالى، والثقةِ في نصره.. وكانت امبراطوريةُ الرومِ الشرقيةُ، تقوم بالدورِ الذي تقوم به الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيةُ في عصرنا الراهن، عُتُوًّا في الأرض وفسادًا، واستعلاءً وبغيًا على الآمنين.. وكأن الشمسَ والهواءَ والغبراءَ لم تُخْلَقْ في عُرْفِ هؤلاءِ الشياطين إلا لهم وحدَهم.. وهذا كذبٌ

صارخٌ على اللّه، وحربٌ مصرَّحةٌ مستعلنةٌ لما أراده الله، وشرودٌ جامحٌ من الذين فقدوا عقيدةَ التوحيد..

كانت الامبراطوريةُ الروميةُ، تُخضِعُ الشعوبَ العربيةَ، في الشام ومصرَ وشمالِ إفريقيةَ لسيطرتِها الطاغية، وتفرض عليها الضرائبَ الجائرة، كما كانت تفرضُ عليها مذهبَها الديني، وتجعل من أرضها مجرَّدَ صوامعَ للغلال، وحزامًا لأمْنِهَا في مواجهةِ الفرس، وتعامل أهلَها بازدراءٍ، على اعتبار أنهم أجناسٌ منحطَّةٌ عن جنسِها المتعالي.. وتُنْكِرُ عليهم حقَّهم في الحريةِ والكرامة.. ثم أحكمت طوقَ الحصارِ حولَهم، هؤلاءِ الصنائع الذين نصَّبتهم ملوكًا مزيفين، فكانوا مجرَّدَ أدواتٍ للقمع، و إثارةِ الشقاق، وسفكِ دماءِ شعوبِهم وقبائِلِهم، ومقاتلةِ بعضِهم بعضًا، من أجل مجدِ بيزنطة..

وهذا ما تفعله امريكا الصليبيةُ اليوم، في منطقتنا العربية، حيث زرعت في أرضنا كيانًا عنصريًّا لا صلةَ له بنا، ولا صلةَ لنا به، وأمدَّتْهُ بالفواتكِ والبواترِ بقصد إبادتِنَا، ثم اعتدتْ علينا بأساطيلِها وقاذفاتِها الاستراتيجية، كما حدث في لبنانَ، ومزَّقَتْ شملَ أمتنا الواحدة، بالحكامِ الذين خنعوا لسياستها، ودفعهم الحرصُ على بقاءِ استبدادِهم، إلى الدفاعِ عن مصالحِ أعدائِنا من الصليبيين والصِّهيونيين، فاستعانوا بهم علينا، وتبرعوا لهم بالقواعدِ الجويةِ والبريةِ والبحرية.. وفتحوا لهم أبوابَ البلاد، ليغرقوها

بالديونِ والسلعِ الاستهلاكية، ويجروا فيها المناوراتِ العسكريةَ الاستفزازية . وحولوا الجيوشَ العربيةَ، إلى مجرد فيالقَ تابعةٍ لجيشِ الطاغوتِ الأمريكي.. ثم راح الجبناءُ يهوِّلون من أمرِ أمريكا، ويخوِّفون الشعوبَ من جبروتها، ويرفعون رايةَ الاستسلام في خسَّةٍ ونذالةٍ وصَغَار..

إنه سيناريو واحد.. وإن تعددت المشاهد..

ولكنَّ المسلمين الأولين، استجابوا من فورهم، لأوامرِ ربِّهم في مقاتلةِ الروم، واستشعروا الخطرَ المحدقَ، الذي يتهدَّد عقيدتَهم، وقوميتَهم.. فمضوا على صدقهم ويقينهم، لا يعرفون شيئًا مما اصطلح الناسُ على تسميته باسم المستحيل، فتسابقوا إلى إنجاز استحصارات المعركة، مقدِّمين كلَّ ما في حوزتهم من مالٍ ودوابَّ وسلاحٍ ومؤن.. وفي مشهدٍ رائع من مشاهدِ التاريخِ، قدمت المرأةُ المسلمةُ حليَّها للمعركة، مدركةً أن الذهبَ والفضةَ لا قيمةَ لهما، إذا ما اكتسح العدوُّ البلادَ، لأنه آنئذٍ سوف يحتوى التلادَ والعبادَ جميعًا..

تخاذل المنافقين

وحسبتْ شراذمُ المنافقين في المدينة أنها فرصة مواتيةٌ لتثبيط المسلمين عن الجهاد، ليُضعفوا الجبهةَ العربيةَ، في مواجهة أعداءِ العروبةِ والإسلام، فاختاروا بيتَ يهوديٍّ يقال له «سويلم» ليكون مباءةً لتثبيط الهمم، و إيقاعِ الجبنِ والفشلِ في صفوف المجاهدين، بتهويل أمرِ العدوِّ، وشدَّةِ السفر، وقلَّةِ الزادِ.. وما إنْ علم الرسولُ بأمرهم، حتى بعث إليهم «طلحةَ بنَ عبيدِ الله»، في نفرٍ من أصحابِه، وأمره أن يحرق عليهم وكرَهم، ففعل..

وكشف المنافقون عن عَوَارِهم وجبنِهم ونذالتهم، كما رأيناهم في معركتيْ «أحد» و«الأحزاب»[6] فراحوا يستأذنون الرسولَ في التخلُّفِ عن المعركة، متعلِّلين بأعذارٍ واهيةٍ كاذبةٍ.. وقد فضح القرآنُ الكريمُ دخيلتَهم، وطَعَنَهم في رجولتِهم، ودمغَهُمْ بالكذبِ والخيانةِ والكفرِ، وتوعَّدهَم بخزيِ الدنيا وعذابِ الآخرة، بمثل قوله:

---

6 ـ راجع صفحة «35» وما بعدها عن معركة «أحد».
وصفحة «61» وما بعدها عن معركة «الأحزاب».

* ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (التوبة ـ 45).

ومثلِ قولِهِ:

* ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (التوبة ـ 57).

ومثلِ قولِهِ:

* ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (التوبة ـ 68).

ومثلِ قولِهِ:

* ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة ـ 87).

في الطريق إلى تبوك

وأنجز المسلمون استحضاراتِ المعركة، في الزمن الذي حدَّده القائدُ الأعظمُ، ﷺ، وتحركوا من المدينة ـ قاعدةِ التوحيدِ الحصينةِ ـ في شهرِ رجبَ، من السنةِ التاسعةِ للهجرةِ النبوية، في جيشٍ لجبٍ، لم تشهد له الجزيرةُ العربيةُ مثيلاً، جيشٍ صاغتهُ

عقيدةُ التوحيدِ جنودًا، يهزُّهم الشوقُ إلى موعودِ الله، والذودِ عن العقيدةِ، التي جاءت لتحرِّرَ المظلومين، وتلوي أعناقَ المتجبِّرين، غيرَ عابئين بموازين القوىٰ بينهم وبين الامبراطوريةِ الطاغية، ولا بطولِ السفرِ، ووعُورةِ الطريق، ولا بقلةِ الظَّهرِ والزَّادِ والماءِ، فقد كان العشرةُ منهم يخرجون على بعير واحدٍ، يعتقبونه بينهم، يركب الرجلُ ساعةً، ثم ينزل، فيركب صاحبُه كذٰلك، وكان زادُهم التمرَ المسوَّسَ، والشعيرَ المتغيِّر.. وكان النَّفَر منهم يخرجون وما معهم إلا التمراتُ اليسيرةُ بينهم، فإذا بلغ الجوعُ من أحدهم، أخذَ التمرةَ فلاكها، حتى يجد طعمها، ثم يخرجها من فيه، ويعطيها صاحبه، ثم يشرب عليها جرعةً من الماء، ويفعل صاحبُه كذٰلك، حتى تأتي على آخرِهم ولا يبقى من التمرةِ إلا النواة.. ويقول عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ تعالى عنه: خرجنا مع رسولِ اللّهِ إلى تبوكَ في قيظٍ شديدٍ، فنزلنا منزلاً، أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ، حتى ظننا أن رقابَنَا ستنقطع، حتى إن الرجلَ لينحر بعيرَه فيعصر فرثَه، فيشربه، ويجعل ما بقي على كبدِه، وحتى إن الرجلَ كان يذهب يلتمس الماءَ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبتَه ستنقطع.. وقد رضى اللَّهُ تعالى عن المؤمنين، حين استجابوا لمقارعةِ الروم، وأبعدوا عن خواطرِهم وساوسَ الشيطان باستعظام أمرِهم، وفي ذلك يقول جلَّ شأنُهُ:

* ﴿لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ

فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة ـ (117)).[7]

وتذكر بعضُ الروايات: أن النبيَّ سار إلى تبوكَ في سبعين ألفًا، ما بين راكبٍ وراجلٍ من المهاجرين والأنصارِ، وغيرِهم من سائر القبائل..

انسحاب الروم

ومضى جيشُ التوحيد، بقيادة خاتَمِ الأنبياء، ﷺ، يقطع المفاوزَ والقفارَ، حتى بلغ تبوكَ، بعد خمسَ عشرةَ ليلةً، فحلَّ بها ولم يجاوزها، وأقام نحو عشرين يومًا، يتحدى أقوى جيوشٍ عرفتْها الدنيا، حتى ذلك الحين.. ولم يقعْ بينه وبين الرومِ التحامٌ، لأن الرومَ بعد أن تحشَّدوا في تبوكَ، جاءتهم الأنباءُ بمسيرةِ قواتِ التوحيدِ فانسحبُوا إلى الشمال.

وعقد رسولُ اللّهِ المصالحاتِ مع صاحب أيلة «يوحنا بن رؤبة» وقد قتله «هرقلُ» بسبب صلحِهِ مع المسلمين، وصلبه عند قريته..

---

7 ـ معنى توبةِ اللّهِ تعالى على النبيِّ: عدمُ مؤاخذتِهِ بإذنه للمنافقين بالتخلف، في مقارعةِ الروم، وهو كقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ فهو من بابِ تركِ الأفضل، لا أنه ذنبٌ يوجب عقابًا ـ الخازن ـ.

كما تَمَّ الصلحُ بين الرسولِ وأهلِ جَرْباءَ وأَذْرُح ودومةَ الجندلِ.. وعاد المسلمون إلى المدينةِ، بعد أن أوقعوا الرعبَ في قلوبِ الروم، والقبائلِ العربيةِ المتنصِّرةِ، المواليةِ لهم.. وقد أحسَّتْ هذه القبائلُ، بصدقِ دعوةِ النبيِّ العربيِّ، وأهدافِها البعيدةِ، في تحريرِ الأمةِ العربيةِ، من آصارِ الجاهليةِ والوثنيةِ الدينيةِ والاجتماعيةِ، لتكون الأمةَ النواةَ في هدايةِ العالَمِ إلى نورِ الله، وهدمِ كلِّ سلطةٍ مستبدةٍ، عربيةً كانت أم غيرَ عربيةٍ، فلم يكد النبيُّ يستقرُّ في المدينة، حتى جاءته وفود من هذه القبائلِ، تعلن إسلامها لله الواحدِ القهارِ..

لقد كان تحدِّي النبيِّ العربيِّ، للامبراطورية الرومية ـ التي خرجت منتصرةً في حربها مع الفرس ـ منعطفًا بارزًا في تاريخ دعوةِ التوحيد، فقد رفع من معنوياتِ الأمةِ العربية، في مواجهة أعدائِها، بالغةً ما بلغتْ قوتُهم.. فبعد أن كانوا يخشَوْنَ هجومَ الروم على ديارِهم، باتوا يتشوقون إلى ملاقاةِ المعتدين في عُقْرِ ديارِهم.. وأكد هذا التحدِّي العظيمُ، قدرةَ الأمةِ العربيةِ على تعبئةِ جماهيرِها العريضةِ، وقيام هذه الجماهير بمَهَمَّاتِ الجيوشِ النظامية، كما أثبت سرعةَ حركتِها، في إنجاز استحضاراتِ المعركة، وارتفاعها فوق الظروف الاقتصاديةِ والجوية الصعبة، درءًا للخطرِ، وابتغاءً لمرضاةِ اللهِ تعالى..

وكان هذا التحدِّي العظيمُ، بمنزلةِ التوجيهِ الأولِ، للزحف نحو مستعمراتِ الرومِ في الشامِ ومصرَ وشمالِ أفريقيا، لانتزاعها من قبضتهم، و إعادتها إلى لُحْمَةِ الأمةِ العربيةِ الموحدةِ، ففي السنة التي تُوْفِّي فيها خاتَم الأنبياء، ﷺ، جهز سريةً، تحت إمرة «أسامةَ بنِ زيدِ بنِ حارثة» وأمره أن يُوطىءَ الخيلَ تخومَ البلقاءِ والداروم من أرض فلسطين.. وتُوُفِّيَ النبيُّ ولم يخرج أسامةُ، فلما استُخلِف أبو بكر جهَّزَ السريةَ.. ولم يمض على وفاةِ الرسولِ ثلاثةُ أعوام، حتى كانت قواتُ التوحيدِ العربية، تستردُّ الشامَ من أيدي الروم، ثم تنطلق تحت رايةِ التوحيد، مقوضةً أركانَ الامبراطوريةِ الطاغيةِ في مصرَ وشمالِ أفريقية..

ملحوظة:

بهذه المعركةِ الميمونةِ، تكون «رسالةُ الجهاد» قد أكملت سلسلةَ معاركِ الرسولِ، ﷺ، مع قوى الوثنيةِ العربية.. والجيوبِ اليهوديةِ في الحجاز.. والقبائلِ العربيةِ المتنصِّرةِ على حدودِ الشامِ.. ثم مع الامبراطوريةِ الروميةِ الصليبيةِ.. وهي معاركُ فرضها الأعداءُ على الثورةِ الإسلاميةِ، فخاضت غمارَها بإيمانٍ باللهِ تعالى، وثقةٍ لا حدودَ لها في موعوده للمجاهدين، وخرجتْ من كلِّ معركةٍ، وهي أصلبُ ما تكون عودًا، وأعنفُ ما تكون كيانًا، واشدُّ إصرارًا على قَبُولِ التحدِّي، و إحرازِ النصر.. ولا تزال معاركُ الإسلامِ مستمرةً مع أعدائِهِ حتى اليوم، جريًا على سُنَّةِ اللَّهِ في الصراعِ بين الحقِّ والباطل.. وما أحوجَنَا إلى دراسةِ تاريخنا، واقتباسِ ما ينطوي عليه، من عِبَرٍ مضيئةٍ ودروسٍ متجدِّدةٍ، تعيننا في صراعِنَا مع أعدائِنا، من الصليبيين، والصِّهيونيين، والمنافقين والمرتدِّين، وتملؤنا إيمانًا، بأن لواءَ الحقِّ في النهاية، سيرتفع خفَّاقًا على أنقاضِ الباطلِ والمبطلين..

محتويات الكتاب

صدر من هذه السلسلة :

1 الغزو الثقافي
سلاح الصهيونية والصليبية الجديدة . — محمد صالح يونس

2 مفاهيم الجماعات في الإسلام . — د. رضوان السيد

3 حول موثوقية الأناجيل . — محمد السعدي

ثمن النسخة (400) درهم ليبي
أو ما يعادلها